القول الحق
في
سيرة سيد الخلق

دكتــــورة
رجاء مصطفى حزين
رئيس قسم الحديث وعلومه
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر - فرع البنات بالقاهرة

١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق، وسيد المرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، والذين اهتدوا بهديه، واستضاءوا بنوره، وسمو بإرشاده، وسلم تسليما كثيرا، **أما بعد:**

فإن السيرة النبوية، هى المنهاج العلمى لحياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وهى النموذج الذى يجب أن يحتذى فى كل زمان ومكان. فهى سيرة أعظم الخلق والرسل، خاتم الأنبياء والمرسلين، تربى فى مدرستها الدعاة والمصلحين، والعلماء والفقهاء، لذا يجب على كل مسلم أن يقتدى بسيرته صلى الله عليه وسلم، ويتزود منها، حتى يستطيع أن يطبق تعاليم دينه وأحكامه، وحتى يعرف كيف تكون الدعوة إلى الإصلاح، وكيف ترتبط الأمة برباط المحبة والأخاء، وكيف تكون الثقة بالنفس والأعتماد على الله.

فلن يكون ثمة كتاب بعد كتاب الله عز وجل أعظم نفعا لأمتنا، وأقوى أثرا فى شحذ وجدان ابنائها، وتبصيرهم، من سيرة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، بما تقدمه من نماذج البطولة والفداء، والبذل والعطاء، والتضحية والإيمان، والصبر على متاعب الدعوة،

كما أنها تبين الدور الذى اضطلع به الصحابة الأخيار رضى الله عنهم أجمعين، دفاعا عن عقيدتهم وتبليغا للإسلام وتعاليمه فى جميع انحاء المعمورة .

وهذا الكتاب يقدم باقات من تلك الحياة النبوية العطرة، قسمته إلى أبـواب :

الأول : فى أصل العرب وعقيـدتهم وأحـوالهم .

الثانى : فى ذكر نسبة واحداث قبل مولده، ومولده صلى الله عليه وسلم إلى بعثته.

الثالث : من بعثته صلى الله عليه وسلم إلى هجرته .

الرابع : من هجرته صلى الله عليه وسلم إلى وفاته .

الخامس : فى ذكر زوجاته وبناته صلى الله عليه وسلم .

السادس : فى ذكر طرف من شمائله صلى الله عليه وسلم .

هذا والله اسأل أن ينفعنا بسيرته، وأن يحشرنا فى زمرته وأن يهدنا سواء السبيل، وأن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم وإن ينفع به سائر المسلمين، وأن يغفر لى ولوالدى ولسائر المسلمين، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د / رجاء مصطفى حزين

الباب الأول

١ - أصل العرب

٢ - عقيدة العرب وديانتهم

٣ - حالة العرب قبل الإسلام :

أولا : الحالة السياسية

ثانيا : الحالة الاقتصادية

ثالثا : الحالة الاجتماعية والخلقية

تمهيـــد :

قبل الحديث عن السيرة النبوية العطرة ينبغى أن نلقى الضوء على حياة سكان شبه الجزيرة العربية، تلك المنطقة التى بعث على ثراها خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم.

لندرك مدى حاجة الناس إلى النبى الكريم، ولكى نقف على مدى ما أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم للبشرية.

وقبل الحديث عن أحوال العرب قبل الإسلام، لابد وأن نلقى الضوء على:

١ - أصل العرب

يرجع أصل العرب، إلى سام بن نوح عليه السلام، وكان مسكنهم قبل أن يسكنوا الجزيرة، جهات العراق ثم نزح فريق منهم إلى الجزيرة العربية التى يكون موقعها بالنسبة للعراق غرباً جنوبياً، فسمى النازحون إليها من بنى سام (عرباً)، ومنذ أطلق على من نزح من بنى سام إلى الجزيرة عرباً ،لقد نسبت تلك الجزيرة إليهم وأصبح اسمها الجزيرة العربية.

قال ابن هشام : (فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان، وبعض أهل اليمن يقول: قحطان من ولد إسماعيل، ويقول إسماعيل أبو العرب كلها)(١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٨/١.

«من جعل العـرب من إسماعيل قالوا فيه - أى فى قحطان - هـو ابن تيمن بن قيذر بن اسماعيل، وقد احتجوا لهذا القول بقول النبى صلى الله عليه وسلم (ارموا يا بنى اسماعيل فإن أباكم كان رامياً) .

قال هذا القول لقوم من أسلم بن أقصى، وأسلم أخو خزاعة وهم من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان)(١) .

ويقسم المؤرخون، العرب إلى ثلاثة أقسام، بحسب السلالات التى ينحدرون منها:

١ - **العرب البائدة** : وهم العرب القدامى الذين بادوا ومحيت آثارهم كعاد وثمود، وطسم، وجديس وعملاق وسواها.

٢ - **العرب العاربة** : وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان، وتسمى العرب القحطانية، وتسمى أيضاً عرب الجنوب، كانوا يسكنون فى بلاد اليمن، وسموا عرباً عاربة لتأصلهم فى العروبة حيث لم يختلطوا بمصاهرة الأعاجم.

٣ - **العرب المستعربة (العرب العدنانية)**: قال ابن إسحاق: فمن عدنان تفرقت من ولد اسماعيل عليهما السلام، فهم عرب من جهة الأمهات، لا الآباء، لأن أباهم إسماعيل كان غير عربى، ولكنه تزوج من جرهم العربية.

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ٩١/١.

ويجمع المؤرخون على أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد نشأ فى بلاد العراق بين قوم يعبدون الأصنام من دون الله، ويحكى لنا القرآن الكريم قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، حيث كان من عبدة الأصنام فدعاه إلى التوحيد، قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّيَ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ»(١) .

وقول الحق تبارك وتعالى: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا»(٢) .

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة التى تصور قصة سيدنا إبراهيم وجهاده فى سبيل القضاء على الوثنية والدعوة إلى التوحيد.

وها نحن نتتبع رحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى شبه الجزيرة العربية، فقد عاش إبراهيم مدة طويلة دون أن يرزقه الله بولد من زوجته «سارة»، وكانت «سارة» حزينة لذلك، فوهبت لزوجها إبراهيم جاريتها «هاجر» وقالت له : «إنى حُرِمْت من الولد، فعسى أن يرزُقَك الله منها غلاماً تَقَرّ به عينك».

وقد استجاب الله سبحانه وحقق أمل إبراهيم وزوجته «سارة» فحملت «هاجر» وولدت ولدها إسماعيل، وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد بلغ من العمر السادسة والثمانين، ولم تطق «سارة» رؤية

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٧٤.

(٢) سورة مريم الآية : ٤١، ٤٢

«هاجر» وطفلها، وطلبت من سيدنا إبراهيم أن يأخذ «هاجر» وطفلها إلى أرض بعيدة عنها، وفى البداية تردد إبراهيم شفقة على طفله إسماعيل، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه أن ينفذ رغبة «سارة»، فأخذ الطفل وأمه إلى الجزيرة العربية حتى وصل بهما إلى المكان الذى فيه بئر زمزم، وكان هـذا المكان آنذاك مجدباً، لازرع فيه ولا ثمر، وهم إبراهيم عليه السلام بالرحيل تاركاً خلفه زوجته وصغيره، وعندئذ قالت له «هاجر»: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، واستودعكما إياه، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لايضيعنا، وبقيت هاجر مع طفلها فى هذا المكان القفر الموحش. ثم قفل إبراهيم عليه السلام راجعاً إلى أهله وهو يدعو ربه قائلا: «رَبَّنَا إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»(١) .

ونصبت هاجر لها ولوليدها عريشاً وعاشت أياماً على ما كان من الطعام والشراب الذى كان زوجها إبراهيم عليه السلام قد تركه معهما، ولما نفد الماء وعطش إسماعيل جعلت أمه تبحث عن الماء، لتروى به ظمأ وليدها وتتردد بين الصفا والمروة مرات بلغت سبعاً فلم تجد شيئاً، وعندما بلغت حد الإعياء عادت إلى حيث يرقد الطفل الصغير إسماعيل عليه السلام فرأت الماء ينبع من تحت قدميه، فشربا وحمدا الله، ومكثوا بهذا المكان وسمى هذا المنبع الذى أفاض الله سبحانه وتعالى فيه الماء بئر «زمزم».

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٧.

وكان يسكن بواد قريب من مكة بنو «جرهم» فعندما تفجر بئر زمزم وظهر ماؤه لزمت الطير الوادى حيث الماء، فلما رأت ذلك بنو جرهم أدركت أن بهذا المكان ماء، فجاءوا إلى هاجر وقالوا: لو شئت فكنا معك فآنسناك، والماء ماؤك، فكانوا معها حتى شب إسماعيل وماتت هاجر فتزوج إسماعيل منهم.

ومما هو جدير بالذكر أن نضيف هنا ما ذكره المؤرخون: من أن إسماعيل تعلم العربية هو وأولاده من بنى جرهم، وقد رزق إسماعيل باثنى عشر ولداً، وهم وذريتهم «العرب المستعربة».

ولاشك أن إسماعيل وبنيه هم أشرف العرب، فهم الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا أصل النبى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم»(١) .

وقد عاش بنو إسماعيل فى مكة زمناً طويلا يتمتعون بالمجد والسلطان، وبجوارهم أخوالهم الجراهمة، ثم قضى على بنى إسماعيل بسبب ضعفهم وتخلفهم، فانتزع الجراهمة السطلة من أيديهم، غير أنهم - أى الجراهمة - طغوا واستحلوا حرمة البيت وظلموا، وأكلوا مال الكعبة، وظهر فيهم الفساد والفسق، حتى كانوا يأتون ـ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الفضائل : باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم ٢/٢٤٥.

الفحشاء والمنكر فى جوف الكعبة، وكان كل ذلك سبباً فى ضعفهم وضياعهم، فقضى عليهم الخزاعيون، وأخرجوهم من مكة.

وكان الخزاعيون قد هاجروا من بلاد اليمن، واستقروا بمكة إلى جانب الجراهمة، وقد ظلوا سادة مكة ما يقارب مائتى سنة، ثم استطاع «قصى بن كلاب» زعيم قريش من بنى إسماعيل - وهو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم - أن يحاربهم وينتصر عليهم، ويعيد نفوذ أجداده القديم وسلطانهم على هذه البلاد.

ومنذ عهد قصى، رجعت السلطة والنفوذ إلى بنى إسماعيل وكان أول مافعله قصى بن كلاب هو جمع أفراد قريش المنتشرين فى نواح متعددة إلى وادى مكة، وجعل لكل بطن حياً خاصاً على مقربة من الكعبة.

وكان لايجرؤ أحد قبل قصى أن يفعل ذلك، ولكن قصياً فعلها وكانت حجته فى ذلك حماية الكعبة وخدمتها، وقد أنشأت هذه البطون أحياء حصينة حول الكعبة من نواحيها الأربع.

كما ابتنى قصى لنفسه قصراً يؤدى مباشرة إلى الكعبة، وهذا القصر كان يعرف باسم (دار الندوة) وهو مجلس الشورى، وكان لايقبل فيه عضو إلا من بلغ الأربعين من عمره، وكانت قريش لاتبرم أمراً إلا فى دار الندوة.

كان قصى يتولى رئاسة هذه الدار، وإلى جانب ذلك حاز مواد الشرف جميعها، وهى التى كانت تعد من مفاخر العرب؛ فكانت بيده

(السقاية) وهى تدبير الماء وحمله من الآبار البعيدة إلى الكعبة حيث تملأ به أحواض من الجلد تنصب حولها فى زمن الموسم، فيستقى منها الحاج مدة إقامته بمكة، وينفق على ذلك من مال الحرم.

وكذلك كانت لقصى (الحجابة) و (السدانة) ويقصد بها حفظ مفاتيح الكعبة لايفتحها إلا هو، ولاتقام شعائر دينية إلا بإذنه.

وكانت له (القيادة) وهى قيادة الجيوش فى الحرب، (واللواء) وهو راية الحرب، ومن عاداتهم أنه لايحمل اللواء إلا من كان من نسل صاحب اللواء.

وقد استطاع قصى بأعماله أن ينمى فى نفوس الناس صفات كثيرة حميدة: منها صفة الكرم، وحسن الضيافة، فحمل الناس وشجعهم على دفع ضريبة سنوية تسمى (الرفادة)، وكان يقصد منها المعاونة على إطعام الحجاج والفقراء وغيرهم، فصارت قريش تدفع من أموالها إليه فيصنع طعاماً وشراباً للحجاج بمكة وعرفه، فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة، ونحر بمكة كذلك، وأعد الثريد واللحم، وسقى الماء.

واستمر الحال على ذلك فى الجاهلية والإسلام حيث لايزال الولاة والملوك يعدون مثل هذا الطعام فى كل عام.

وقد توارث ابناء قصى المجد والسلطان، حتى جاء من أحفاده عبد المطلب بن هاشم، وهو الجد الأول لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؛ فكانت السلطات آنذاك موزعة على عشرة من أشراف قريش:

سقاية الحاج : للعباس بن عبد المطلب.

والرفادة : للحرث بن نوفل بن عبد مناف.

والديات والحمالات : لأبى بكر الصديق.

والسفارة : لعمر بن الخطاب.

والسدانة : لعثمان بن طلحة.

والمشورة : ليزيد بن زمعة.

والقبة والأعنة (ويقصد به مكان تجهيز الجيوش): لخالد بن الوليد.

والأموال المحتجزة (وهى لأوثانهم) : للحرث بن قيس.

والأنصاب والأزلام : لصفوان بن جمح.

والندوة : وكانت للأسود بن عبد العزى بن قصى فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان رئيس دار الندوة يعتبر رئيس الجمعية الوطنية، وهو كبير مستشارى الدولة، ولاتصدر قريش عن أمر إلا بموافقته.

٢ - عقيدة العرب وديانتهم

كانت الديانة السائدة فى جزيرة العرب هى الوثنية، وكان إلى جوار الوثنية ديانتان أخريان تدين بكل منهما طائفة قليلة من سكان شبه الجزيرة العربية، وهما: النصرانية فى الجنوب وتتمثل فى سكان نجران، واليهودية فى الشمال ويمثلها فريق من سكان يثرب، وهما وإن كانا فى الأصل ديانتين سماويتين، إلا أن كلا منهماكان قد دخله التحريف والتبدبل، وأصبح الحال يؤذن ببزوغ فجر دين جديد، فكان هذا الدين فيما بعد هو الإسلام.

ونستطيع أن نقول: إن ديانة العرب كانت مختلفة، فمنهم من كان يعبد الكواكب وكانت عبادة الشمس (لحمير) وكانت عبادة القمر (لكنانة)، وكانت تميم تعبد (الدبران)، ولخم وجذام، تعبدان (المشترى)، وقيس تعبد (الشعرى والعبور)، وأسد تعبد (عطارد).

ومنهم من كان يعبد الأصنام، كثقيف، وأياد، كانتا تعبدان (اللات) فى نخلة، وبنو كلب تعبد (ود) بدومة الجندل، وهذيل تعبد (سواع) ومذحج، وبعض قبائل اليمن تعبد (يغوث)، وهمدان تعبد (يعوق)، وذو الكلاع تعبد (نسرا) والأوس والخزرج تعبدان (مناه)، وقريش، وبنو كنانة تعبدان (العزى). وأعظم أصنامهم (هبل) وكان منصوباً على ظهر الكعبة، و (أساف ونائلة) وكانا منصوبين على الصفا والمروة.

قال ابن اسحاق: (واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنماً خاصاً بهم يعبدونه، فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر مايصنع حين يترك وطنه، وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله ، فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد قالت قريش ما حكاه القرآن عنهم: أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب).

وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه الكريم بعض هذه الأصنام حيث قال عز من قائل: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ، إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ»(١) .

وكما سبق - أن ذكرنا - أنه كان باليمن قوم يعبدون الشمس، وهم الذين ذكرهم الله فى محكم كتابه حيث قال تعالى: «فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ»(٢) .

إلى جانب ذلك كان هناك (المجوس) وهم طائفة من العرب يعبدون النار، انتقلت إليهم من الفرس الذين كانوا يسكنون بجوارهم.

---

(١) سورة النجم الآية : ١٩ وما بعدها.

(٢) سورة النمل الآيات : ٢٢-٢٤.

وكان هناك - أيضاً - الحنفاء، وهم الذين كانوا لايقرون عبادة الأصنام، ويؤمنون بالله الواحد الأحد، وبعضهم كان من أهل الكتاب، ومنهم من كان يعتبر نفسه على دين إبراهيم عليه السلام، وينتظر قدوم نبى يأتيه الوحى من السماء ليتبعه.

والآن لنا أن نتساءل كيف تسربت الوثنية إلى الجزيرة العربية، بعد دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لهداية الناس إلى العبادة الصحيحة، وهى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به؟

وللإجابة على هذا السؤال نورد ما ذكره ابن الكلبى فى كتابه: (الأصنام)(١) فيقول: إن عمرو بن لحى الخزاعى كان حاجب الكعبة، ثم مرض مرضاً شديداً فذهب إلى البلقاء فى الشام ليستحم فى ماء هناك، فاستحم وبرأ، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ قالوا: نستسقى بها المطر، ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

وفى موضع آخر يقول: وكان الذى سلخ بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لايظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم، وصبابة بمكه، فحينما حلوا وضعوه وطافوا به تطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها، وصبابة بالحرم حباً له، وهم يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون...

---

(١) الأصنام ص٦ .

ثم انتهى الأمر إلى أنهم عبدوا ما استحبوا ونسوا ماكانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم.

إذاً كان العرب على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، موحدين حنفاء، إلى أن جاء عمرو بن لحى بن قمعة بن خندق فأدخل الشرك فى الحنيفية السمحاء.

فعن أبى هريرة(١) رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعى: «يا أكثم، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندق يجر قصبه(٢) فى النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به، ولابك منه» فقال أكثم: عسى ألا يضرنى شبهه يارسول الله؟ قال: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فينصب الأوثان(٣)، وبحر البحيرة(٤)،

---

(١) أخرجه أحمد وابن أبى شيبة والحاكم وصححه، وأقره الذهبى.

(٢) قصبه: أمعائه.

(٣) الأوثان: جمع وثن، وهو ما يعبد من دون الله إذا كان من غير صخرة كالنحاس وغيره.

(٤) البحيرة: الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها، ولايجز وبرها، فيجعل صاحبها الإناث منها للآلهة.

وسيب السائبة(١) ، ووصل الوصيلة(٢) ، وحمى الحامي»(٣) .

وكانت الكعبة فى ذلك العصر الجاهلي مركزاً للوثنية ومقراً لها ، إذ كانت تحيط بها الأصنام من كل جانب ، وكان أعظمها عندهم هبل ، وهو تمثال من العقيق الأحمر ، على شكل إنسان مكسور اليد اليمنى ، وقد أدركته قريش وهو على هذا الوضع ، فصنعت له يداً من ذهب .

وعقيدتهم فى تلك الأصنام تختلف ، فقد كانوا فريقين : فريقاً كان يعبد هذه الأصنام علىأنها تشفع لهم عند الله وتقربهم اليه ، وقد قال تعالى حكاية عنهم : «ما نَعبُدُهم إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى» .

وفريق آخر كان يعبدها على أنها الآلهة التى تضر وتنفع وتعطى وتمنع ، وهم الذين أخبر الله عنهم بأنهم عجبوا من محمد لأنه جعل الآلهة إلهاً واحداً . وذلك فى قوله تعالى حكاية عنهم : (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً . إِنَّ هذَا لشَيءٌ عُجَابٌ»(٤) .

---

(١) السائبة : التى ينذر الرجل أن يسيبها إن برىء من مرضه أو أصاب أمراً يطلبه ، ولاينتفع بولدها .

(٢) الوصيلة : التى تلد أمها اثنين فى كل بطن ، فيجعل صاحبها الإناث للآلهة .

(٣) الحامى : الفحل إذا انتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره ، فلم يركب ولم يجز وبره .

(٤) سورة ص الآية : ٥ .

اليهود(١) فى الجزيرة العربية :

عندما أجدبت البلاد التى كان يقطنها أبناء يعقوب فى فلسطين هاجروا إلى مصر طلباً للرزق والمساعدة، وكان بمصر آنذاك يوسف عليه السلام، وعاشوا بمصر إلى أن كتب الله عليهم الجلاء عن مصر عندما اضطهدهم فرعون فخرجوا منها عام ١٢٢٠ قبل الميلاد، تحت قيادة سيدنا موسى عليه السلام إلى أن وصلوا إلى شبه جزيرة طور سيناء، وبها أرض كنعان، وقد أسسوا بها مملكة عظيمة.

وينزل الله سبحانه وتعالى على سيدنا موسى (التوراة) كدين وكتاب وتعاليم لليهودية... لإخراج الناس من تيه الشرك والضلال.

قال الله تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَاتَشْتَرُواْ بِأَيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا»(٢) .

ويظل موسى عليه السلام فى دعوته، واليهود يناوئون ويتعللون، يفسقون ويعبدون غير الله، حتى ارتفع بدعائه إلى الله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»(٣) .

---

(١) يرجع اليهود فى نسبهم إلى إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام ولذا يسمون بالإسرائيليين أو بنى إسرائيل. ويسمون كذلك باليهود نسبة إلى يهوذا أحد أولاد يعقوب. أو لأنهم بعد أن أضلهم السامرى عن الحق هادوا إلى الله. أى رجعوا إليه وتابوا وطلبوا من الله أن يغفر لهم.

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٤.

(٣) سورة المائدة الآية : ٢٥.

ويؤدبهم الله سبحانه وتعالى بالتيه أربعين عاماً، خرجوا منه وهم أشد وحشية وضراوة كفر، حتي جاءهم نبى الله داود عليه السلام بكتاب آخر هو الزبور، وقال تعالى:«وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا»(١). ولكنهم جبلوا على المكر والكفر والخديعة.

وكان من ملوكهم بعد داود سليمان عليه السلام، وبعد وفاته انقسم اليهود على أنفسهم، فكانت لهم مملكتان فى فلسطين، إحداهما: بالجنوب وهى مملكة يهوذا، وعاصمتها أورشليم، والثانية: بالشمال وهى مملكة إسرائيل، وكانت عاصمتها السامرة.

اضطهد الرومان - وكانوا أصحاب السلطان والنفوذ - اليهود، فاضطروا إلى الهجرة فى صحراء العرب إلى أن استقروا فى أماكن متفرقة من بلاد الحجاز، ومن أولئك المهاجرين كان بنو قينقاع وبنو النضير، وبنو قريظة.

يقول الدكتور كمال على(٢) : إن ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم لهم يستند على أساس تاريخى صحيح؛ فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فمن المعقول أن يكون يهود الحجاز من نسل اولئك المهاجرين، ومنهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة.

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٣.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام د. كمال على ١/١٠.

وعن مساكن اليهود؛ فبعضها كان بداخل المدينة، وبعضها كان قريباً منها، وبعضها كان بعيداً عنها، فمن كان يسكن داخل المدينة بنو قينقاع، أما بنو النضير فكانت مساكنهم بالعالية بوادى بطحان على بعد ثلاثة أميال من المدينة، أما بنو قريظة؛ فكانت مساكنهم بمنطقة مهزور على بعد قليل من جنوب المدينة، أما يهود خيبر، فكانوا يسكنون فى الشمال الشرقى للمدينة، وكانت ذات حصون قوية وبها مزارع وبساتين ونخيل كثيرة.

وقد كان من اليهود التى تسكن المدينة وضواحيها بطون صغيرة كبنى عكرمة وبنى ثعلبة وبنى محمر وبنى زعورا وبنى عوف وبنى بهدل وبنى النقيص وغيرهم، وكانت هذه البطون الصغيرة تابعة فى سياستها لبنى فينقاع وبنى النضير وبنى قريظة(١) .

وكان يسكن على مقربة منهم من العرب الأوس والخزرج. وهما قبيلتان من العرب الذين هاجروا من بلاد اليمن على أثر انهيار سد مأرب.

وكان اليهود يشتغلون بالتجارة، وقد برعوا فيها حتى كانت تجارة الشعير والقمح والتمر والخمر تكاد تكون وقفاً عليهم، وكذا صناعة الصياغة وصناعة الدروع وآلات الحرب والقتال، وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطى الربا، مما جعلهم يتحكمون فى الأسواق ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم(٢) .

وكان النزاع دائماً بين قبلتى الأوس والخزرج وبين اليهود، وكانت الغلبة دائماً والنصر للعرب.

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة د. محمد طنطاوى ٧٧/١.
(٢) المرجع السابق ٧٩/١.

المسيحية فى الجزيرة العربية :

لازال اليهود يغيرون تعاليم الله سبحانه وتعالى، ولازال الله سبحانه وتعالى يرسل إليهم الأنبياء، ويقتل بعضهم بأيدى أولئك الكفرة، حتى جاء سيدنا عيسى عليه السلام ليخلصهم من شرور أنفسهم، ويعود بهم إلى وحدانية الله الفرد الصمد يقول الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى عليه السلام: «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ»(١) .

والمسيحية وما جاء به عيسى عليه السلام، هو اقرار بحقائق ماسبق من رسالات سماوية وبما جاء به من سبقه من الانبياء قال الله تعالى: (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ. وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)(٢) .

وقد اختلف المؤرخون فى مبدأ دخول المسيحية إلى بلاد العرب، ولكن الراجح فى ذلك أنها دخلت عن طريق الاتصالات التجارية بين بلاد العرب والبلاد المجاورة لهم، وأن ذلك بدأ منذ أوائل القرن الرابع الميلادى، وأنها انتشرت فى بلاد العرب بعد انتهاء هذا القرن، وكانت (الحيرة) أهم مراكز المسيحية فى بلاد العرب.

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٥٠، ٥١.

(٢) سورة المائدة الآيتان : ٤٦، ٤٧.

وكان أهم سكانها هم الطائفة المعروفة بالعباد، ثم دخلت النصرانية إلى بلاد اليمن على أيدى الأحباش الذين استعمروها، وحاولوا أن ينشروا المسيحية فيها، فبنوا بها كنيسة كبرى فى صنعاء، وأرادوا أن يجعلوها مركزاً للديانة المسيحية، وحاولوا هدم الكعبة فى عام الفيل، ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل.

وكما كان يحدث لبعض الأنبياء من أقوامهم، كذلك حدث للمسيح عليه السلام حيث هم قومه بصلبه، ولكن الله نجاه منهم ورفعه إليه.

والذى نقرره هنا أن الجميع متفقون على أنه - عليه السلام - لم يقتل ولم يصلب كما يزعم اليهـود ، وكما يزعم النصارى بعد أن حرفوا الإنجيل وزيفوه، والقرآن الكريم صريح فى ذلك حيث يقول سبحانه وتعالى عن اليهود: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا»(١) .

وانتشرت المسيحية انتشاراً كبيراً، وكان هناك تناوب وتغاير فى كتابة الإنجيل، ثم حرفوا كلام الله وشرعه فى اتباع المسيح، وقليل هم الذين احتفظوا بسلامة الدين، وقليل منهم أيضاً هم الذين بقى يدين بملة إبراهيم عليه السلام.

أما السواء الأعظم فهم ملاحدة ومشركون، يستنكرون وحدانية الله وهم يعلمون.

---

(١) سورة النساء الآيتان : ١٥٧، ١٥٨.

٣ - حالة العرب قبل الإسلام

ينبغى لنا قبل الحديث على بعثة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أن نتحدث عن حياة سكان الجزيرة العربية، فى جوانبها السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والخلقية، لكى ندرك مدى حاجة الناس فى هذا الزمان إلى النبى الكريم، كما نقف على الجهد العظيم الذى بذله صلى الله عليه وسلم لينهض بهذه الأمة ويربطها بدين الله عز وجل.

وسنتناول - إن شاء الله - بإيجاز هذه الجوانب :

أولا : الحالة السياسية :

كان يوجد بالجنوب من الجزيرة العربية مملكة اليمن، ولقد مر الملك باليمن بمراحل متعددة بين ازدهار وضعف واضمحلال.

ففى عهدهم الزاهر أيام السد «سد مأرب» قامت نهضة زراعية وعمرانية تحدث عنها القرآن الكريم حيث قال تعالى «لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ»(١) .

وكان هذا الأمر قبل ما يقرب من سبعة قرون قبل الميلاد واستمر ثلاثة قرون.

وكذلك خلال عهدهم الزاهر أيام ملك سليمان عليه السلام، وقصة ملكة سبأ مذكورة فى القرآن الكريم، وكانوا قد انحرفوا عن التوحيد وصاروا يعبدون الشمس، قال تعالى : « فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ

---

(١) سورة سبأ الآية : ١٥.

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَايَهْتَدُونَ»(١).

كما أن القرآن الكريم يشير إلى رجاحة عقل ملكة سبأ وحزمها وانتشار الشورى فى عهدها، قال تعالى: «قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيمَانَ وَإِنَّهُ بِسمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وأْتُونِى مُسْلِمِينَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمراً حَتَّى تَشْهَدُونِ، قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأمُرِينَ قَالَت إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهلِهَا أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفعَلُونَ، وَإِنِّى مُرسِلَةٌ إِلَيهِم بِهَدِيَةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرجِعُ المُرسَلُونَ»(٢).

ثم يحدثنا أيضاً عن إسلامها ودخولها فى دين الله «قَالَت رَبِّ إِنِّى ظَلَمتُ نَفسِى وَأَسلَمتُ مَعَ سُلَيمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ»(٣).

وبعد انهيار السد تفرق شملهم، وأعرضوا عن التوحيد وقد حكى عنهم القرآن الكريم ذلك حيث قال تعالى: «فَأَعرَضُوا فَأَرسَلنَا عَلَيهِم سَيلَ العَرِمِ وَبَدَّلنَاهُم بِجَنَّتَيهِم جَنَّتَينِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمطٍ وَأَثلٍ وَشَىءٍ مِن سِدرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَينَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَل نُجَازِى إِلَّا الكَفُورَ. وَجَعَلنَا بَينَهُم وَبَينَ القُرَى الَّتِى بَارَكنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرنَا فِيهَا السَّيرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِد —

---

(١) سورة النمل الآيات من ٢٢–٢٤.

(٢) سورة النمل الآيات من ٢٩–٣٥.

(٣) سورة النمل من الآية : ٤٤.

بَيْنَ أَسفارِنَا وظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعلْنَاهُم أَحَادِيثَ ومَزّقناهُم كُلَّ مُمَزقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِ صَبَّارٍ شَكُورٍ. ولَقَد صَدَّقَ عَليهم إبليسُ ظَنّهُ فَاتّبعوهُ إِلاّ فَرِيقاً مّنَ المؤمنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَليهِم مِن سُلطَانٍ إِلا لِنعلَمَ مَن يُؤمنُ بالآخِرةِ ممّن هُوَ مِنهَا فِي شَكٍ وَرَبُّكَ عَلى كُلِ شَيءٍ حَفِيظٌ»(١) .

وكان بعد ذلك استيلاء أبي كرب تبان أسعد على ملك اليمن، وامتداد نفوذه حتى وصل إلى مكة والمدينة، وهو الذي أدخل النصرانية، وجاء بعده ابنه حسان الذي امتد نفوذه إلى العراق وبعده أخوه عمرو.

ثم جاءت مرحلة دخول النصرانية إلى نجران والتي صادفت وجود ذي نواس على رأس الحكم والذي كان يهودياً، وسار بجنوده فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين القتل وبين الدخول في دينه فاختاروا القتل.

وحكى القرآن الكريم قصتهم في قوله سبحانه وتعالى: «قُتِلَ أَصحَابُ الأُخدُودِ، النّارِ ذَاتِ الوَقُودِ، إذ هُم عَلَيهَا قُعُودٌ، وَهُم عَلَى مَا يَفعلُونَ بالمؤمنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقمُوا مِنهُم إلاّ أَن يُؤمِنُوا باللّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ، الّذِي لَهُ مُلكُ السّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَاللّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ، إِنَّ الّذِينَ فَتَنُوا المؤمنِينَ وَالمؤمنَاتِ ثُم لَم يَتُوبُوا فَلَهُم عَذَابُ جَهَنّم ولَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ»(٢) .

وبعد ذلك انهار حكمهم بعد أن استولى الأحباش على بلادهم ثأراً من ذي نواس باسم النصرانية عام ٥٢٥هـ.

---

(١) سورة سبأ الآيات : ١٦-٢١.

(٢) سورة البروج الآية : ٤ـ ١٠ .

وبقوا على ذلك حتى استعادوا استقلالهم بمعونة الفرس وتحت قيادة معديكرب بن سيف بن ذى يزن الحميرى، الذى أغتيل من الحبشة الذين أبقاهم لخدمته، وبموته انقطع الملك عن بيت ذى يزن، ثم ولى كسرى غلاماً فارسياً على صنعاء وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس على اليمن حتى كان آخرهم (باذان) الذى اعتنق الإسلام عام ٦٣٨م، وبإسلامه انتهى النفوذ الفارسى فى اليمن.

وفى الشمال كان الملك بالحيرة، ففى عهد ملوك الطوائف قبل قرنين من الميلاد هاجر القحطانيون وسكنوا ريف العراق ، وتبعهم بعض العدنانيين، وعندما استعاد الفرس قوتهم عام ٢٢٦م على عهد (أردشير) استولوا على العرب المتاخمين لملكه، ورأى أنه لايستطيع أن يحكم العرب مالم يجعل عليهم رجلا منهم له عصبة تؤيده وتمنعه.

وكان عمرو بن عدى أول ملوك الحيرة، وتتابع الملوك بعد ذلك وكان أشدهم النعمان بن المنذر الذى غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها له زيد بن عدى العبادى، وكانت وقعة (ذى قار) المشهورة بين العرب والعجم حيث انتصر العرب،وكان ذلك فى أيام ولادة النبى صلى الله عليه وسلم.

وولى كسرى بعدها على الحيرة حاكماً فارسياً، ثم أعاد الملك إلى آل لخم عام ٦٢٢م حتى تولى المنذر الملقب بالمعرور، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر، حتى قدم خالد بن الوليد رضى الله عنه بجند المسلمين.

نعم لقد كان لهم مظاهر الملك. أما الحقيقة فقد كانوا صنيعة بيد الفرس، يحاربون بهم الغساسنة العرب فى الشام لتهيئة مصالح الفرس.

أما عن الملك بالشام: فإنه (لما خرج عمرو بن عامر إلى اليمن مع قومه تفرقوا فى البلدان، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخرزج يثرب، ونزلت خـزاعة ، مرا ، ونزلت أزدالسراة، ونزلت أزدعمان عمان، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه)(١) .

وانتهت ولاية الضجاعمة من قضاعة على الشام بعد قدوم آل جفنة (الغسانيين) إليها، فولتهم الروم ملوكاً على عرب الشام، وكانت قاعدتهم دومة الجندل.

ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالا لملوك الروم حتى كانت موقعة (اليرموك) سنة ١٣هـ، حيث انقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الغسانى فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو الذى ارتد وذهب إلى قيصر عندما أراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن ينتصف للأعرابى منه؛ حيث قال له: الإسلام سوى بينكما.

أما عن الإمارة بالحجاز فقد بقى إسماعيل عليه السلام وولداه ثابت ثم قيدار على إمرة مكة، ثم رجع أمر مكة إلى مضاض بن عمرو الجرهمى جدهما، وبقى الأمر كما سبق أن أشرنا - فى جرهم زهاء عشرين قرناً، حتى غلبتهم خزاعة وصار أمر مكة لها حيث استمر ثلاثمائة عام، إلى أن جاء قصى بن كلاب الذى تزوج بنت حليل بن حبشـة الخزاعى ، وانتقل أمر مكة له بعد حرب ضـارية

(١) السيرة الحلبية ١٥٧/٢.

احتكموا بعدها ليعمرو بن عوف، أحد بنى بكر، فقضى بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وكان هذا فى القرن الخامس للميلاد، ونظم قصى بعد ذلك أمر مكة.

ونخلص من ذلك إلى أنه لم يكن فى الجزيرة العربية حكومة منظمة تضم أنحاءها، وتوحد البلاد تحت سياسة حكيمة، تضمن سلامة السكان وتحميهم من الاعتداء عليهم، وتحافظ على أموالهم وممتلكاتهم، وتعاقب المجرمين والمعتدين بما يردعهم ويوقفهم عند حدهم.

كذلك لم يكن فى البلاد جيش موحد يدافع عنها من يحاول الاعتداء عليها، كما لم يكن عندهم نظام قضائى يتحاكمون إليه عند منازعاتهم بينهم فى مشكلاتهم.

وإنما كانت كل قبيلة دولة مستقلة تصرف أمورها بمايتفق ومصالحها، وتحدد علاقاتها مع جيرانها بالشكل الذى تراه مناسباً لها.

ولقد كان النظام القبلى سائداً فى المجتمع العربى قبل الإسلام: فكان شيخ القبيلة هو الحاكم الأعلى لقبيلته، وهو الرمز الذى يلتفون حوله، وصاحب السلطان المطلق فيها، وكانت أوامره المستمدة من العرف القائم بينهم تقوم مقام القانون، ويكون شيخ القبيلة عادة أكبر أفرادها سناً، وأكثرهم مالا، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام.

وكان هذا النظام القبلى يدعو إلى التنافس بين القبائل بعضها البعض، على النفوذ المادى والأدبى.

وكثيراً ما كانت القبائل يغير بعضها على بعض لغرض السيطرة أو لتحقيق مكاسب، فكانت كل قبيلة تجتهد فى أن تكمل نفسها وتبسط نفوذها ولو على أنقاض غيرها من القبائل.

ومن هنا كانت تسود العداوة والبغضاء بين القبائل المختلفة، وتثور الحروب وتنشب المعارك لأوهى الأسباب بينهم.

وكانت الحروب الطاحنة تدوم بينهم سنين عدداً لأسباب تافهة، لا لشيء إلا أنها العصبة الجاهلية تركب رؤسهم وتستولى على عقولهم، وكانت لهم أيام مشهورة عرفت بأيام العرب لما وقع فيها من الهول، ولطول ما دامت فيها الحروب وذهبت فيها النفوس، ومن هذه الحروب، حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، وحرب الفجار.

وقد أدى ذلك إلى تفكك المجتمع العربى وعدم الترابط بين أجزائه ، وهو تفكك كان ينذر بالانحلال وسوء المآل.. على أن التفكك وعدم الترابط بين القبائل كان يزول فى بعض الفترات إذا ما تعرض العرب للغزو والعدوان الأجنبى .. حينئذ يقوم شيوخ القبائل بجمع الشمل وينسون ما بينهم من حرب ونزاع، ويهبون جميعاً فى وجه هذا الخطر مثلما حدث فى واقعة (ذى قار) فى أواخر القرن السادس الميلادى، وانتهت بنصر العرب وهزيمة الفرس.

ثانيا : الحالة الاقتصادية :

كانت الزراعة تقوم بأطراف الجزيرة العربية، وبخاصة بلاد اليمن والشام وبعض الواحات المنتشرة فيها.

وكان سكان شبه الجزيرة فى وضع اقتصادى سىء، حيث كانت الأرض الزراعية قليلة، ومبعثرة بطريقة لاتمكن السكان من ممارسة الزراعة كعمل ينشط اقتصادهم، ويعينهم على الرحلة فى جوانب الأرض المتباعدة إلا فى أماكن قليلة من أنحاء شبه الجزيرة: كالطائف والمدينة وخيبر وتيماء وفدك ووادى القرى.

ولكن الغالب على البادية رعى الإبل والغنم، وقصد مواقع الكلأ والتنقل وراء العشب والماء، حيث لايعرفون الاستقرار إلا فى مضارب خيامهم، بينما كان أهل المدن يعملون أحياناً فى الزراعة.

وأما بقية السكان غير المزارعين والتجار؛ فكانوا يشتغلون بالرعى، ويعيشون على ماتنتجه الماشية، وهؤلاء كانوا أتعس حظاً من غيرهم، وهم السواد الأعظم من السكان.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للعجم والموالى، وتجدر الإشارة إلى أنهم عندما أرادوا بنيان الكعبة - وهى أقدس ما عندهم استعانوا بنجار قبطى، ذكر ابن اسحاق(١) أنه كان مقيماً فى مكة.

ولكن التجارة كان لها النصيب الأوفى والحظ الأوفر، وخاصة فى مكة وعلى وجه التحديد فى قريش، فقد كانت لهم رحلتان، رحلة الشتاء ورحلة الصيف، كما ذكر القرآن الكريم فى قوله عز وجل: «لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ»(٢) .

غير أن هذه التجارة كانت غير آمنة؛ فهى تتعرض للسلب والنهب فى أى وقت، وقد تقع الحروب من أجل ذلك كما حدث فى حرب الفجار، والتى قامت لأن عروة الرحال من هوازن أجار تجارة للنعمان بن المنذر على بنى كنانة، وقتل عروة الرحال على يدى البراض بن قيس، وهاجت الحرب بين القبيلتين(٣) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٩٢/١.
(٢) سورة قريش .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١٨٤/١.

وقد أدت هذه التجارة إلى تكوين طبقة من الأثرياء المترفين وأخرى من الفقراء المعدمين.

ويجدر بالذكر عند الحديث عن الحالة الاقتصادية للعرب قبل ظهور الإسلام، أن نذكر أسواق العرب فنقول: «كان للعرب فى الجاهلية أسواق يقيمونها فى شهور السنة، وينتقلون من بعضها إلى بعض، ويحضرها كل قبائل العرب، من بعد منهم ومن قرب؛ فكانوا ينزلون «دومة الجندل»، وهى المسمى اليوم بالجوف، وهو واقع فى شمال الجزيرة بالقرب من الشام، أول يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، فيقوم بعشائهم رؤساء آل بدر من دومة الجندل، وإذا غلب على السوق بنو كلب يقوم بعض رؤساء كلب بعشائهم، فتقوم أسواقهم إلى آخر الشهر، ثم ينتقلون إلى سوق (حجة)(١)، وهو المشهور فى ربيع الآخر فتقوم أسواقهم بها، وكان يقوم بطعامهم المنذر بن سلوى، أحد بنى عبد الله بن دارم، ثم يرتحلون نحو عمان بالبحرين، فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون فينزلون إرم وقرى الشحر(٢)، فتقوم أسواقهم بها أياماً، ثم يرتحلون فينزلون (عدن)، من اليمن، فيشترون منها (اللطائم) وهى الأقمشة وأنواع الطيب، ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها إلى صنعاء، ثم تقوم أسواقهم بها ويجلبون منها الخرز والأوم والبرد، وكانت تجلب إليها من معافر،

---

(١) حجة بفتح أوله: جبل مشهور، وقد سميت بلدة حجة باسمه، وهى فى جنوب الجزيرة العربية.

(٢) إرم وقرى الشحر على ساحل بحر العرب فى جنوب الجزيرة العربية.

ثم يرتحلون إلى عكاظ(١) فى أول شهر شوال، فتقوم أسواقهم بعكاظ، ويتناشدون الأشعار ويتحاجون، ومن له أسير سعى فى فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة، وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فيها من بنى تيم ، وكان أحدهم الأقرع بن حابس، ثم ينتقلون منها فى نهاية شهر شوال، فينزلون مر الظهران وهو (وادى فاطمة)(٢) فى أول ذى القعدة، فتقوم أسواقهم فيه طيلة الشهر، ثم يرتحلون إلى الحج، والوقوف بعرفة، فإذا قضوا مناسكهم نزلوا مكة للطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة، فكانت قريش تقوم بضيافتهم بمكة حتى يرتحلوا.

وكان سوق عكاظ بمثابة المؤتمر العام، والمعرض العام لعموم قبائل العرب قاطبة، فكان يجتمع فيه فحول الشعراء والخطباء، والملوك والأمراء، وكانت تجرى بينهم مسابقة فى الشعر والخطابة والشجاعة وغير ذلك»(٣) .

وكانت لقريش اليد الطولى فى التجارة - كما سبق أن قررنا - فقد كانت لهم رحلتان: إحداهما فى الصيف إلى الشام فى الشمال، والأخرى فى الشتاء إلى اليمن فى الجنوب.

---

(١) قال الأصمعى : عكاظ : نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال. وبه كانت تقام سوق العرب، بموضع منه يقال له: (الانيداد).

(٢) هذا الوادى، واقع شمال مكة، ويبعد عنها حوالى ٢٠ ميلا، وهو واد خصب كان به فى الأزمان السالفة نحو ثلاثمائة عين ماء، ومرت ولم يبق منها الآن سوى أربع وأربعين عين ماء بخيوفها.

(٣) حياة سيد العرب، لحسين عبد الله باسلامه ١/٤٢-٧٢ «بتصرف».

ومع كل هذا فقد بلغ سوء الوضع الإقتصادى فى جزيرة العرب حداً رهيباً اضطرهم فى كثير من الأحيان إلى الغارة وشن الحروب، لعلهم من خلالها يجدون ما يقتاتون به، وأحياناً كانوا يغيرون على الحدود فترسل لهم الدولة التى يغيرون عليها من الشعير الذى يقتاتون به، فيرضون وتهدأ ثائرتهم، ويعودون إلى بلادهم.

من أجل هذا حين خرجت الجيوش الإسلامية غازية بلاد الفرس ظنها ملك الفرس (يزدجرد) ثائرة لمانزل بها من الجوع، فقال للنعمان بن مقرن: إن كان الذى أخرجكم الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم،وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

ويدور حوار بين رستم قائد الفرس وبين المغيرة بن شعبة. فيقول رستم للمغيرة: قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش، وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به، ونصرفكم ببعض ما تحبون(١) .

ثالثاً : الحالة الاجتماعية والخلقية :

أما عن الجانب الاجتماعى والأخلاقى، فنستطيع أن نقول: إن معظم سكان شبه الجزيرة العربية قد انتشر فيهم الضعف وفساد الأخلاق فانتشر القمار، وفشت الخمر، وكثرت مجالس اللهو التى تدار فيها الكؤوس.

وتدل الإشارات الواردة فى القرآن الكريم على أن هذا المجتمع الجاهلى كان مؤسساً على مجموعة من الأعراف والتقاليد، وإن تكن ذات قيمة حضارية محدودة لكنها كانت غير صالحة للاستمرار.

---

(١) فتوح البلدان ص٢٥٧.

ومن ذلك - مثلا - هذه المغالاة المفرطة فى الاعتداد بالأحساب والأنساب، والتكاثر بالأموال والسطوة القبلية. ولذا أنكر القرآن الكريم عليهم ذلك فى قوله سبحانه وتعالى: «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»(١) .

وكذلك أشار القرآن الكريم إلى أساس التمييز والتفاضل بين الناس فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»(٢) .

«ومن سمات الجاهلية التى تحدث عنها القرآن الكريم منكراً على أصحابها استمرارهم عليها: سمتان بارزتان:

أولاهما : الخضوع الكامل لحمية الجاهلية، ونزعات الغضب الحمقاء وما تصبغه فى الأفراد والجماعات من انحراف فى التفكير والسلوك واندفاع إلى التدمير والعنف، الأمر الذى ظهر بوضوح فى نشوب الحروب والعدوات بين أصحاب الجاهلية لأتفه الأسباب، ربما من أجل كلمة عابرة، وربما من أجل قبضة من الكلأ يقضمها حيوان أعجم من أرض محمية لقبيلة من القبائل لإنسان من الناس، وربما من أجل العناد الأجوف الذى لايدل على شىء سوى فراغ رؤوس أصحابه من اليقين الذى يصنع الاتزان فى التفكير والسلوك.

والثانية : من سمات هذه الجاهلية القصور التام فى تصور علاقة الإنسان بالكون، وبالله سبحانه خالق هذا الكون.

---

(١) سورة التكاثر الآيتان : ١، ٢.

(٢) سورة الحجرات الآية : ١٣.

فأصحاب الجاهلية الأولى، وكل الجاهليات، يقيمون الأمور فى دنياهم على أساس العلاقة بين السبب والمسبب، أو بين العلة والمعلول.. غافلين عن الخالق والمدبر الأعظم لهذا الكون، وهو وحده سبحانه الذى يستطيع أن يقطع العلاقة بين الأسـباب ومسبباتها، أو يوجد المعلول من غير علة.. وهذه الغفلة عن الخالق سبحانه سمة بارزة من سمات أصحاب التفكير المادى، والتى يعجز أصحابها عن الارتقاء إلى ما وراء معطيات الحس البشرى المحدود.

ولذا أنكر القرآن الكريم أن تستمر هذه الجاهلية فى مجتمع الإسلام، فى آيات تصف مواقف كثيرة ومختلفة منها قوله تعالى: «ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيكُم مِّن بَعدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغشَى طَآئِفَةً مِنكُم. وَطَآئِفَةٌ قَد أَهَمَّتهُم أَنفُسُهُم يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ: هَل لَّنَا مِنَ الأَمرِ مِن شَيءٍ؟ قُل إِنَّ الأَمرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، يُخفُونَ فِى أَنفُسِهِم مَّا لَايُبدُونَ لَكَ، يَقُولُونَ لَو كَانَ لَنَا مِنَ الأَمرِ شَىءٌ مَّا قُتِلنَا هَاهُنَا، قُل لَّو كُنتُم فِى بُيُوتِكُم لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيهِمُ القَتلُ إِلىٰ مَضَاجِعِهِم وَلِيَبتَلِىَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُم وَلِيُمَحِّصَ مَافِى قُلُوبِكُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»(١) .

وكذلك قوله تعالى: «وَأَنِ احكُم بَينَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَاتَتَّبِع أَهوَآءَهُم وَاحذَرهُم أَن يَفتِنُوكَ عَن بَعضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيكَ»(٢) .

وقوله تعالى: «أَفَحُكمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبغُونَ وَمَن أَحسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكماً لِقَومٍ يُوقِنُونَ»(٣) .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٥٤.

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٩.

(٣) سورة المائدة الآية : ٥٠.

ومنها كذلك قوله تعالى فى سورة الفتح، مشيراً إلى موقف العناد البغيض الأجوف الذى وقفه المشركون من الرسول وصحبه صلوات الله وسلامه عليه يوم الحديبية وذلك فى قوله تعالى(١) : «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا»(٢) .

ومهما يكن من شىء فقد كانت للعرب فى الجاهلية أخلاق عظيمة، لا نجدها فى غيرهم من الأمم المعاصرة لهم، فمن خصالهم: الشجاعة والعفة، والشهامة والنجدة، والحمية وعلو الهمة، وحفظ العهد والوفاء بالوعد، والمحافظة على الأعراض، والمدافعة عن الجار، وحفظ الجوار، والكرم والسخاء، والضيافة لكل وافد عرفوه، أو لم يعرفوه، وكانوا مثال الحرية فى أقوالهم وأعمالهم وعاداتهم، من غير تكلف، لأنها سجية فيهم، ويتفاخرون بشدة البأس وعزة النفس وإباء الضيم، والحلم والفصاحة، وحفظ الشرف ومكارم الأخلاق وسرعة الخاطر بالبديهيات وغير ذلك.

يقول المباركفورى(٣) : «لاينكر أن أهل الجاهلية كانت منهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ويأباها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ويفضى به إلى الدهشة والعجب، فمن تلك الأخلاق:

---

(١) سورة الفتح الآية : ٢٦.

(٢) السيرة النبوية فى القرآن الكريم. د. عبد الصبور مرزوق ص٢٢ وما بعدها.

(٣) الرحيق المختوم ص٥٢-٥٤.

١ - الكرم، وكانوا يتبارون فى ذلك، ويفتخرون به، وقد استنفذوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به، ومثن على غيره.

كان الرجل يأتيه الضيف فى شدة البرد والجوع، وليس عنده من المال إلا ناقته التى هى حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم، فيقوم إليها ويذبحها لضيفه، ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة، والحمالات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون لها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات، وكانت من نتائج كرمهم أنهم كانوا يمتدحون بشرب الخمر لا لأنها مفخرة فى ذاتها، بل لأنها سبيل من سبل الكرم.. وإذا نظرت إلى دواوين شعراء الجاهلية تجد ذلك باباً من أبواب المديح والفخر....

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم؛ لأنهم كانوا يطعمون المسكين ما ربحوه، أو ما كان يفضل من سهام الرابحين.

ولذلك ترى أن القرآن الكريم لاينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول: «وإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا»(١) .

٢ - ومن تلك الأخلاق الوفاء بالعهد، فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به، ويستهينون فى سبيله بقتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفى فى معرفة ذلك قصة هانىء بن مسعود

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٩.

الشيبانى(١) ، والسموأل بن عاديا(٢) ، وحاجب بن زرارة التميمى(٣) .

٣ - ومنها عزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضيم، وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة، وشدة الغيرة وسرعة الانفعال، فكانوا لايسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلاقاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحرب العوان، وكانوا لايبالون بالتضحية بأنفسهم فى هذا السبيل.

٤ - ومنها المضى في العزائم، فإذا عزموا على شئ يرون فيه المجد والافتخار لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم فى سبيله.

٥ - ومنها الحلم والأناه والتؤدة، كانوا يمتدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود، لفرط شجاعتهم، وسرعة إقدامهم على القتال .

٦ - ومنها السذاجة البدوية، وهى عدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها، وكان من نتائجها الصدق والأمانة والنفور من الخداع والغدر.

---

(١) قصة هانىء بن مسعود الذى استودع عنده حرم النعمان وسلاحه، ورفض تسليمها لكسرى، وكان هذا مما أشعل حرب ذى قار بين العرب والفرس راجع: أيام العرب ٦ - ٣٤.

(٢) وإجارة السموأل بن عادياً لامرىء القيس وأهله - أيام العرب ١٢٠.

(٣) حاجب بن زرارة التميمى، الذى منع الحارث بن ظالم المرى حين التجأ إليه، وخاض حرباً ضروساً مع بنى عامر على ذمته، وهو يوم رخرحان - أيام العرب ٣٤٤.

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة - مع ما كان للجزيرة العربية من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم - كانت سببا فى اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشرى، لأن هذه الأخلاق وإن كانت بعضها يفضى إلى الشر، ويجلب الحوادث إلا أنها كانت فى نفسها أخلاقاً ثمينة، تدر المنافع العامة للمجتمع البشرى بعد شئ من الإصلاح، وهذا الذى فعله الإسلام».

أما عن المرأة(١) فى هذا وأحوالها فى هذا المجتمع، فكان الجاهلى يستشعر نحوها أمرين :

الأول : الإحساس بالعار والهوان حين يعلم أنه أصبح أباً لأنثى، ذلك الذى عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»(٢) .

والثانى : الإحساس بثقل وطأتها واعتبارها عبئاً ثقيلا كما قرر القرآن فيما مضى من الآيات .

والواقع أن هذه العادة لم تكن منتشرة بين العرب ولكنها كانت موجودة فى بنى تميم وبنى أسد، من أصل ثلاثمائة وستين قبيلة.

ولهذا نستطيع أن نقرر: أن وأد البنات لم يكن شائعاً عندهم فى

---

(١) السيرة النبوية فى القرآن والسنة د. عبد الصبور مرزوق «بتصرف يسير».

(٢) سورة النحل الآية : ٥٩، ٦٠.

أكثر القبائل، والقرآن الكريم حينما يذكر هذه العادة إنما يحذر القبائل الأخرى حتى لاتتأثر بهذا الشر وذلك الفساد.

كذلك لانستطيع إنكار ما كان موجوداً فى المجتمع العربى من محاسن، وبخاصة مايتصل منها بالعلاقات الاجتماعية، فقد كان الرجل العربى يحترم المرأةويجلها وكانت تحظى بالاهتمام والعنايةفى كثير من أشعاره ويناديها بربة البيت احتراماً لها وتكريماً يقول الشاعر:

ياربة البيت قومى غير صاغرة   ضمى اليك رجال القوم والقربا

ومن مظاهر هذا الاحترام والتقدير أيضا أن كان الرجل يخاطب المرأة بالكنية فيقول لها: «يا أم فلان»، وكذلك كان الرجل (الوالد) يستشير ابنته إذا أراد أن يزوجها فلا يرغمها على الزواج ممن لاترغبه.

وكان الرجل يرتبط مع المرأة بعقد زواج بعد رضائها ورضاء أوليائها بعد أن يتفقوا على مهر معين وكانوا يعددون الزوجات، ولكن لم يكن لهن حد معروف لعددهن، وكانوا يطلقون، فإذا أراد الرجل أن يطلق زوجته يقول لها: الحقى بأهلك أو ما يماثل هذه الكلمة، وفى بعض الأحيان يكون للمرأة الحق فى أن تطلق نفسها، وكان يعرف طلاق المرأة لنفسها بأن تحول باب بيتها المصنوع من الشعر أو الوبر أو الجلد إلى جهة مقابلة لجهته الأصلية، ولكن الغالبية من العرب كانت تجعل حق الطلاق للرجل.

ومن ذلك يتضح أن صورة رباط الزواج المقدس كانت موجودة عند العرب فى العصر الجاهلى.

ومع ذلك فقد كانت عندهم فى المجال الاجتماعى عادات سيئة وأنكحة فاسدة، روى البخارى فى صحيحه(١) عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم - رضى الله عنها أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء، منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته، أو ابنته فيصدقها، ثم ينكحها.

ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى تبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وكان يطلق على هذا النكاح، نكاح الأستبضاع.

ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع واحد منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان - وتسمى من أحبته باسمه - فيلحق به ولدها لايستطيع أن يمتنع منه الرجل.

والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لاتمتنع ممن جاءها وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب النكاح : باب من قال لانكاح إلا بولى.

وأبو داود فى سننه، كتاب النكاح: باب وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية.

علماً، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة(١) ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطوه به (ألحق بنسبه) ودعى ابنه لايمتنع من ذلك، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم».

يضاف إلى ذلك ألوان أخرى من النكاح هى أيضا من الأنكحة الفاسدة والعادات السيئة التى كانت فى تلك الحقبة من الزمان.

«نكاح المقت» وهو الذى يتزوج فيه الرجل زوجة أبيه، وقد حرم القرآن الكريم هذا النوع بنص الآية الكريمة، قال تعالى: «وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَاقَد سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً»(٢).

وكذلك نكاح «الخدن» الذى حرمه الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله: (وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتخِذَاتِ أَخْدَانٍ)(٣).

كما كان لديهم أحياناً استبداد الرجل بأمر المرأة حتى يمنعها من أن تتزوج، قال تعالى: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحنَ أَزْوَاجَهُنَّ»(٤).

ومن الأمور الأخرى التى تضاف إلى وضع المرأة فى هذا العصر أنها كانت تحرم من الميراث.

---

(١) جمع قائف: وهو الذى يدرك الشبه الدقيق بين الابن وأبيه.

(٢) سورة النساء الآية: ٢٢.

(٣) سورة النساء من الآية: ٢٥.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٣٢.

هكذا كانت الأوضاع فى جزيرة العرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، أخلاق أغلبها فاسدة، واقتصاد منهار، وملك مقسم تسوده الحروب من آن إلى آخر.

يقول الاستاذ الندوى(٢) : «وهكذا وصلوا - أى أهل الجاهلية - رغم ما طبعوا عليه من الفتوة، وخلال المروءة، وكثير من الأخلاق العربية الكريمة، وصلوا إلى درجة سخيفة راعنة من الوثنية وعبادة الأصنام، والتمسك بالخرافات والأوهام، وجهل المفاهيم الدينية الصحيحة ، والبعد عن الإبراهيمية الحنيفية السمحة.... وصلوا إلى درجة لم يصل إليها إلا النادر من الشعوب والأمم».

من أجل ذلك كله كانت الجزيرة العربية فى أشد الحاجة إلى مصلح ينهض بها، ودستور ينظم حياتها، ورجال يعرفون واجبهم، من أجل ذلك كانت بعثة رسول الله صلى الله وسلم والرسالة المحمدية.

وسوف نتناول بمشيئة الله تعالى الرسالة المحمدية منذ ولادته ثم بعثته عليه الصلاة والسلام حتى وفاته.

---

(١) السيرة النبوية للندوى ص٦٩.

الباب الثانى

محمد صلى الله عليه وسلم
من ميلاده إلى بعثته

- نسبه صلى الله عليه وسلم ومولده.
- أحداث سبقت مولده عليه السلام (حادثة الفيل).
- ولادته صلى الله عليه وسلم .
- رضاعته وحضانته .
- حادثة شق الصدر .
- وفاة أمه صلى الله عليه وسلم.
- كفالة جده عبد المطلب وعمه أبى طالب.
- مشاركته صلى الله عليه وسلم فى حرب الفجار.
- شهوده حلف الفضول .
- مشاركته صلى الله عليه وسلم فى بناء الكعبة وحكمه بين المتنازعين.
- عمل النبى صلى الله عليه وسلم فى شبابه.
- زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضى الله عنها.
- بعض البشائر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
- حياة الخلوة والتأمل.

نسبه صلى الله عليه وسلم ومولده

إنه - عليه السلام - سيد العرب، من سلالة آباء كرام عربى أبطحى حرمى قرشى هاشمى، من خير بطون العرب، أعرقهم نسبا، وأشرفهم حسبا، وأفصحهم لسانا، وأوضحهم بيانا، وأكرمهم معشراً كما ورد فى صحيح مسلم(١) ، عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله اصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم».

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم، فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كبوة من الأرض، قال النبى صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم، من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلنى من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً)(٢) .

فنسبه الشريف من جهة أبيه :

هو محمد، بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصى، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤى، بن غالب، ابن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر بن نزار، بن معد، بن عدنان.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه. كتاب الفضائل : باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم.

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه. كتاب الفضائل : باب فضل النبى صلى الله عليه وسلم. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

فهذا منتهى نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم ، الذى رواه البخارى فى صحيحه، وأخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى، من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: (إن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب، لم يتجاوز معد بن عدنان).

ووقع الخلاف بين علماء النسب فيما بين عدنان إلى إسماعيل عليه السلام، فروى الحافظ ابن عبد البر، حديثا موقوفاً عن ابن عباس رضى الله عنهما: (بين عدنان وإسماعيل، ثلاثون أباً يعرفون). وقال غيره : أربعون أباً، فاستبعد ذلك الحافظ ابن حجر، بعد أن أورد كل ماقيل حول هذا الخلاف فى كتابه فتح البارى فى شرح صحيح البخارى .

والذى ترجح عنده واختاره، ما أخرجه الحاكم والطبرانى من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت: (عدنان هو ابن أد، بن زيد، بن برىء، بن أعراق الثرى، وأعراق الثرى، هو إسماعيل).

فعقب ابن حجر على هذه الرواية فقال: وهو الأوفق لما ذكرته، عن إبراهيم بن المنذر، عن عبد الله بن عمران، انتهى. وعليه فلا مانع من سياق نسبه صلى الله عليه وسلم إلى إسماعيل. وأما ما ذكر عن الإمام مالك رضى عنه أنه كره رفع النسب الشريف إلى آدم عليه السلام، فذلك محمول على رفعه من إسماعيل إلى آدم، والله أعلم.

وروى أبو جعفر بن حبيب، فى تاريخه المحبر، من حديث ابن عباس رضى الله عنه، قال : كان عدنان، ومعد، وربيعة، ومضر، وخزيمة، وأسد، على ملة إبراهيم، فلا تذكروهما إلا بخير. وروى الزبير بن بكار من وجه آخر مرفوعاً: «لاتسبوا مضر، ولا ربيعة،

فإنهما كانا مسلمين» . كل ذلك ذكره الحافظ ابن حجر، فى فتح البارى، وكان عدنان فى زمن موسى عليه السلام.

أما عن نسبه من جهة أمه :

فهو محمد ، بن آمنه الزهرية، بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن مرة ، يجتمع نسب أبيه، وأمه، فى كلاب.

أحداث سبقت مولده عليه السلام

حادث الفيل :

كان حادث الفيل بما شمله من ظروف، وما أحاط به من معجزات دليلا على أن الله تبارك وتعالى يريد للكعبة مستقبلا فى الأرض لاتقوى على هدمه قوة .. وأن لها فيما يستجد من الأيام دوراً لايقوم به غيرها. كما كان إرهاصاً بأن المنطقة على وشك أن تستقبل حدثاً عظيماً، ونقطة لها دلالتها فى تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم فى العام الذى وقع فيه هذا الحادث.

اختلفت الروايات فى سبب هذا الحادث، فذهب جمهور الرواة إلى ما رواه محمد بن إسحاق من أن الأحباش - وكانوا يدينون بالمسيحية - أرادوا أن ينشروا هذا الدين فى جزيرة العرب، بعد أن استولوا على اليمن، وخاصة بعد أن رأوا تقديس العرب لمكة، وللمسجد الحرام، وتقديمهم القرابين والنذور والهبات إلى سدنة المسجد والقائمين بأمره.

وذلك بأن بدأ أبرهه - ملك اليمن - ببناء كنيسة هائلة، صرف همته فى زخرفتها وتزيينها، وسمى هذه الكنيسة (القليس)، وبذل فيها ما استطاعه من العناية، حتى إنه نقل إليها من قصر بلقيس الأعمدة من الرخام المجزع، والحجارة المنقوشة بالذهب، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس، ودعا الناس إلى الحج إليها(١) .

---

(١) الروض الأنف ١/٤٠ بتصرف .

وكتب إلى النجاشى (ملك الحبشة) : إنى بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

غضب العرب لذلك، وثار رجل من بنى مالك بن كنانة، وأقسم ليعبثن بهذه الكنيسة، وقدم إلى اليمن ودخل الكنيسة كأنه متعبد، حتى إذا دخل الليل وخلا المكان، قام يعبث بأثاث الكنيسة، ويلطخ جدرانها بالقاذورات، فلما علم أبرهة بما أصاب الكنيسة، وعرف أن الذى فعل بها ذلك أعرابى كان يبيت بها غضب غضباً شديداً، وأقسم ليهدمن الكعبة، ويطأن مكة.

وذهب ابن هشام الكلبى ومقاتل بن سليمان إلى أن سبب حادث الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض الحبشة، فنزلوا على ساحل البحر إلى جوار بيعة للنصارى يسمونها الهيكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا، فهبت ريح عاصفة على النار، فأضرمت البيعة ناراً فاحترقت، فأتى الصريخ إلى النجاشى، فأخبره فاستشاط غضباً، فأتاه ابرهة فى الصباح وحجر بن شرحبيل وأبو يكسوم الكنديون، وضمنوا له إحراق الكعبة وسبى مكة(١) .

وجهز أبرهة لذلك العدة والعديد، واجتمع جيشه من الأحباش وانطلقوا تتقدمهم الأفيال.. حتى نزلوا بوادى (المغمس) بالقرب من مكة، وكان دليلهم قد جاء من الطائف ويدعى (أبو رغال)، وقد مات ودفن فى (المغمس)وظلت العرب ترجم قبره كلما مروا به(٢).

---

(١) كتاب «محمد صلى الله عليه وسلم» للشيخ محمد صادق عرجون ص١٢٣-١٢٤.

(٢) سيرة ابن كثير ٣٢/١.

ولقد دافع أشراف اليمن عن البيت، فقد خرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يدعى (ذو نفر) فدعا قومه، ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجنده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه وتخريبه، فأجابه إلى ذلك من أجاب، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأتى به أسيراً إلى أبرهة، فلما أراد قتله، قال ذو نفر: أيها الملك لاتقتلنى، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى، فتركه، وحبسه عنده فى وثاق.

ثم مضى أبرهة على وجهه يريد ماخرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلى خثعم: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيراً، فأتى به، فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لاتقتلنى، فإنى دليلك بأرض العرب، وهاتان يداى على قبيلى خثعم: شهران وناهس، بالسمع والطاعة، فخلى سبيله.

قال ابن اسحاق: فقالوا: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذى بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم(١).

فلما نزل أبرهة (المغمس) أرسل رسولا من قبله إلى مكة يدعى (الأسود بن مقصود) على خيل له، حتى انتهى إلى مكة، فاستولى على أموال تهامة من قريش، وفيها مائتان بعير لسيد قريش

---

(١) الروض الأنف للهيلى ١/٦٧.

عبد المطلب.. وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهمت قريش وكنانة وهذيل، ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لاطاقة لهم به فتركوه.

وأرسل أبرهة لعبد المطلب بن هشام من يدعوه لملاقاته، فطلب منه أن يبلغه بأن قريشاً لاتريد محاربته، ثم استجاب الدعوة ليرى ما عنده.

فانطلق عبد المطلب مع من دعاه إلى أبرهة، ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر، ووقف بباب أبرهة فقيل لأبرهة: إن عبد المطلب ببابك، فقال: من هو عبد المطلب؟ قيل: إنه سيد قريش وصاحب عيش مكة، وهو الذى يطعم الناس فى السهل، والوحوش فى رءوس الجبال. فأذن له أبرهة.

وكان عبد المطلب وسيماً جميلا، شديد الهيبة والوقار، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: ماحاجتك؟ فقال: حاجتى أنه يرد على الملك مائتى بعير لى أصابها فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه؟ فقال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه ويحميه. فرد أبرهة قائلا: ما كان ليمتنع منى. فأجابه: أنت وذاك.. فرد أبرهة على عبد المطلب المائتى بعير التى أصابها.. وانطلق عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر.

وانحازت قريش إلى الجبال والشعاب تخوفاً ونجاة.. وترقباً لما يصنع أبرهة بالبيت، أو ما يصنعه به رب هذا البيت.. وقام عبد المطلب ونفر معه يمسكون بحلق باب الكعبة، يستصرخون رب البيت ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة بابها:

لاهــم إن العبــد يمــ ... نع رحله فامنــع رحــالك
لايغلبــن صــليبهم ... ومحالهــم عــدوا محــالك
إن كنــت تاركهــم وكعـ ... ـبتنــا فــأمــر مابــدالك(١)

وأصبح أبرهة يتجه بجيشه إلى البيت ليهدمه، وهيأ فيله ليتقدم الجيش، لكنه برك.. فحاولوا معه وضربوه فما تحرك، فلما وجهه صوب اليمن قام يهرول.

وما كان إلا عقاب الله لأبرهة وجنده؛ بأن أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر فى منقار، وحجران فى رجليه - أمثال الحمص والعدس - لاتصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت..

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أيــن المفــر والإلــه الطالــب ... والأشرم المغلوب ليس الغالــب

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى الشامى ١/٢٥٤.

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، وكلما سقطت أنملة خرج وراءها الدم والقيح الكثير، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يقولون.

وهذا الحادث سجله القرآن الكريم فى قوله تعالى: «أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصحَابِ الفِيل. أَلَم يَجعَل كَيدَهُم فِى تَضلِيل. وَأَرسَلَ عَلَيهِم طَيراً أَبَابِيلَ. تَرمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ.فَجَعَلهُم كَعَصفٍ مَّأكُولٍ»(١).

وهكذا حمى الله سبحانه وتعالى بيته المحرم من الطغاة المعتدين، ولعل حكمته تعالى فى ذلك، أن البيت العتيق، يعد مصدراً للنور والهداية منذ أن أرسى قواعده سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قد يكون تغير الأحوال فى بعض الأحيان، وعبادة العرب للأوثان، وتركهم ما أنزل الله على يد الأنبياء فترة مؤقتة — شاء الله تعالى ألا تطول — فحمى الله سبحانه بيته المحرم من عدوان أبرهة وجنده، تمهيداً لعودة التوحيد على يد سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم الذى ولد فى نفس العام.

خطـأ ورده :

وعندما نتحدث عن سورة الفيل وماجاء بها من قوله عز وجل «أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصحَابِ الفِيلِ، أَلَم يَجعَل كَيدَهُم فِى تَضـلِيلٍ،

---

(١) سورة الفيل الآيات ١ — ٥ .

وَأَرسَلَ عَلَيهِم طَيراً أَبَابِيلَ، تَرمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ فَجَعلهُم كَعَصفٍ مَّأكُولٍ»(١) .

يتبين لنا مدى الخطأ الذى وقع فيه بعض العلماء(٢)، الذين أنكروا الطير والحجارة ،وقالوا إن الله عز وجل يريد بالطير الرياح المتجمعة، وبالحجارة ذرات التراب التى حملت ميكروب الجدرى.

ذلك لأنه لم يعهد فى لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل – أى جماعات من الطير – ولاينبغى أن يقال ذلك إلا بطريق مجازى بعيد، ولايصح أن يلجأ إلى مثل هذا المجاز ما دامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله جل شأنه ومثل ذلك يقال عن الذرات من التراب، إذ لايقبل فى لغة العرب أن يقال عنها أنها حجارة من سجيل، أى من طين مطبوخ بالنار وهى الآجر.

وإذا كانت الريح قد حملت ميكروب الجدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم، ولم يهلك معهم العرب؟ .

وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن المعقول أن «سورة الفيل» قد نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم فى وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم، وبعضهم من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية ، والحجـــارة حجـــارة

---

(١) سورة الفيل الآيات ١ – ٥ .

(٢) ممن وقع فى الخطأ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره لجزء عم، وكذلك الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد» والدكتور طه حسين فى كتابه « على هامش السيرة ».

حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة، ويعلن ذلك على رءوس الأشهاد وينتهزها فرصة للكيد لمحمد والطعن عليه.

ولكن الواقع أن سورة «الفيل» قد نزلت، فتلقاها العرب بالقبول، لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لاشك فيها، ولايجرؤ أحد على إنكارها.

وعلى هذا - فالطير الأبابيل، هى الطيور الحقيقية المعروفة لدى العرب، ولعلها غارات جوية وقعت فى هذا العام قبل الأوان، ولم يصنعها إنسان ليبطش بأخيه الإنسان ، ولكن صنعها القهار ليكبح بها جماح الظلم والعدوان»(١) .

---

(١) القول المبين فى سيرة سيد المرسلين د. محمد الطيب النجار ص١٧٠،١٦.

ولادته صلى الله عليه وسلم ورضاعته

فى عام الفيل، وبمكة المكرمة، وفى يوم الأثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول الموافق للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، ولد سيد الخلق والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

وفى فترة ميلاده صلى الله عليه وسلم كان قد سمى ثلاثة من كبار العرب أبناءهم (محمداً)، طمعاً فى أن يكون هو المولود المنتظر.. لأنهم عرفوا ذلك ممن لهم علم بالكتاب.

وذكر الحافظ ابن حجر فى كتابيه «فتح البارى»(١) و «الأصابة»: أنه أحصى من سمى محمداً فى الجاهلية، قبل النبى صلى الله عليه وسلم، ستة عشر، وذلك أن العرب لكثرة أسفارهم إلى الشام، سمعوا من الكهان والأحبار، أن نبياً سيبعث فى هذا الزمان، يسمى محمداً، فرجا كل من سمع ذلك أن يكون المبعوث ابنه، فسموا أبناءهم محمداً، وهذه أسماء من سموا محمداً:

١ - محمد بن عدى بن ربيعة بن سوءة التميمى السعدى.
٢ - محمد بن سفيان بن مجاشع التميمى.
٣ - محمد بن يزيد بن عمرو بن ربيعة التميمى.
٤ - محمد بن عقبة بن أحيحة.
٥ - محمد بن أسامة بن مالك بن العنبر التميمى.
٦ - محمد بن أحيحة بن الحلاج .

---

(١) فتح البارى ٧/٢٦٧-٢٢٨.

٧ - محمد بن البراء بن طريف بن عثورة بن عامر بن كنانة، ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث، فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة، وذلك فى شهر شعبان، قبل حادثة الفيل بأربعة أشهر، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وجداً شديداً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد أتم شهرين فى بطن أمه.

ولما تم حمله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر قمرية، أخذ أمه المخاض، فوضعته ليلة الإثنين، ثانى عشر من ربيع الأول، عام الفيل، ولم تشك أمه من حمله ما يعرض لذوات الحمل من النساء، ورأت أثناء حملها كثيراً من البشائر، كما تولت ولادته صلى الله عليه وسلم الشفاء بنت عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب، وهى أم عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، الذى كان فيما بعد ضمن المختارين للخلافة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب، عندما طعن، وقد أمره بالصلاة بالناس، وهى التى آمنت به صلى الله عليه وسلم وكانت بعد ذلك، من المهاجرات الأوليات.

وكانت ولادته صلى الله عليه وسلم فى دار أبى طالب بمكة المكرمة.

وعندما وضعت آمنة وليدها المبارك، أرسلت إلى جده عبد المطلب الذى سرعان ما استجاب لها وأعلن مسرته بحفيده..، وقد حمله ودخل به الكعبة، وهو يشكر الله سبحانه وتعالى على عطائه.. ويدعو له، وتذكر الروايات أنه حينئذ أخذ يقول:

الحمـد للـه الـذى أعطانـى هـذا الغـلام الطيـب الأردان
قد سـاد فى المهد على الغلمان أعيـذه بالبيـت والأركـان
حتـى أراه بـالـغ البنيـان أعيـذه من شـر ذى شنآن
من حاسـد مضطرب العنـان

ثم خرج به إلى أمه، وفى اليوم السابع، ختنه جده عبد المطلب، وصنع له وليمة، وسماه محمداً، كما أورد ذلك الوليد بن مسلم، بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما، وحكاه ابن عبد البر فى التمهيد وغيره، وذكر البيهقى فى الدلائل: أن عبد المطلب لما سمى النبى صلى الله عليه وسلم (محمداً)، قالت له قريش: لم رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله فى السماء، ويحمده خلقه فى الأرض.

ويوردون فى ذلك أيضاً: أن عبد المطلب قد رأى فى نومه كأن سلسلة من فضة قد خرجت من ظهره، لها طرف فى السماء، وطرف فى الأرض، وطرف فى الشرق، وطرف فى الغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، فقصها: فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشـرق والمغرب ، يحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمداً(١) ..

---

(١) الروض الأنف الهيلى ١/١٠٥.

رضاعته وحضانته

وكان أول من أرضعته بعد أمه صلى الله عليه وسلم، ثوبية، عتيقة أبى لهب(١)، أرضعته مع عمه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وأبى سلمة بن عبد الأسد بن هلال المخزومى، أحد السابقين الأوائل إلى الإسلام، ذكر ذلك ابن حجر العسقلانى فى الإصابة، فى القسم الأول من الصحابيات.

ثم أرضعته حليمة، بنت أبى ذؤيب، عبد الله بن الحارث، من بنى سعد، بن بكر بن هوازن، ويرجع نسبها إلى قيس بن عيلان بن مضر.. وكان من عادة العرب اتخاذ المراضع من البوادى.. لما يروونه من نجابة المواليد وصحتهم، حيث الجو الصافى المنطلق حتى ينشأ الطفل صافى الذهن صحيح الجسم.

فجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء فى مكة، فكان محمد بن عبد الله من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية، قال ابن إسحاق(٢) : وحدثنى جهم بن أبى جهم مولى الحارث بن حاطب الجحمى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، أو عمن حدثه عنه، قال : كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً، قالت : فخرجت على

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه أن أبا لهب يسقى من نقره تحت إبهامه بعتاقة ثوبية فرحاً عندما بشر بولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٠٩.

أتان فى قمراء معنا شارف لنا - أى ناقة مسنة - والله ما تبض بقطرة - أى ما ترشح بشىء - وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا، من بكائه من الجوع، مافى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانى تلك فلقد أدمت بالركوب - أى أطالت عليهم المسافة - حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً - أى هزالا - حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً غيرى فلما أجمعنا على الإنطلاق قلت لصاحبى: والله أنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لاعليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة..

قالت : فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، ثم وضعته فى حجرى، فأقبل عليه ثدياى بما شاء الله من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، وقام زوجى إلى شارفنا تلك، فإذا بها حافل فحلب منها وشرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبقينا بخير.

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمين والله ياحليمة: لقد أخذت نسمة مباركة، فقلت : والله إنى لأرجو ذلك.

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب مالايقدر عليها شىء من حمرهم، وحتى أن صواحبى

ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك! اربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله إنها لهي هي ، فيقلن: والله إن لها لشأنا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها.

فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولايجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض قطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته.

وأما عن حواضنه صلى الله عليه وسلم فهن: أمه آمنة بنت وهب، وثويبة الأسلمية، وحليمة السعدية، وبنتها الشيماء، وأم بركة الحبشية، وهي جارية أبيه عبد الله، وقد ورثها صلى الله عليه وسلم عن أبيه بعد وفاته(١) .

---

(١) زاد المعاد ١/٢٦ .

حادثة شق الصدر

تعد حادثة شق الصدر التى حصلت له عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده فى مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة، ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل.

وقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات، قبل أن يبعثهم حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم.

وقد رويت هذه الحادثة - حادثة شق الصدر - بطرق صحيحة، وعن كثير من الصحابة منهم أنس بن مالك فيما يرويه مسلم فى صحيحه(١) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، ونزع منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده إلى مكانه. وفزع الغلمان إلى أمه - مرضعته - ينادون: أن محمداً قد قتل، ثم استقبلوه وهو منتقع اللون(٢) . قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره.

وقد خشيت السيدة حليمة عليه صلى الله عليه وسلم أن يكون قد أصابه شيء، فأرجعته إلى أمه آمنة، وقصت عليها النبأ العجيب، فطمأنتها آمنة قائلة: إن لابنى هذا لشأناً، فلم أكن أحس أثناء حمله بشيء مما تجده الحوامل، ولقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج منى فأضاء قصور الشام.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب [illegible]

(٢) منتقع اللون : متغير لونه.

ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية، فعادت به حليمة، وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره.

وقد تكرر حادثة شق الصدر، عندما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنوات. عن أبى بن كعب: أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئاً على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال: يا رسول الله، ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: لقد سألت أبا هريرة إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى، لا أجد لأحدهما مساً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه فأضجعانى بلا قسر ولا هصر، وقال أحدهما لصاحبه: «أفلق صدره» فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع فقال له: أخرج الغل، والحسد فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال: اغد واسلم، فرجعت بها اغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير»(١).

ثم تكررت حادثة شق الصدر مرة ثالثة عندما جاوز صلوات الله وسلامه عليه الخمسين، وعندما كان فى الحطيم، وأتى بطست مملوء إيماناً فغسل قلبه ثم حشى ثم أعيد.

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم.

والحديث ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/٢ه وقال: رجاله ثقات وثقهم ابن حبان.

روى الإمام أحمد والإمام مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله من ماء زمزم، ثم خرج بطست من ذهب مملوء حكمة وإيماناً، فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء الدنيا».

وهذا الحديث الذى رواه الأئمة: أحمد والبخارى ومسلم، يوضح إن الشق كان فى هذه المرة ليلة المعراج. وقال ابن حجر فى (الفتح) وهو الصواب.

إلى تعدد القصة أكثر من مرة ذهب القسطلانى فى (المواهب) حيث قال: وهذا الشق روى أنه وقع له عليه الصلاة والسلام مرات فى حال طفولته إرهاصاً، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص(١) .

كما نقل ابن حجر عن الطيالسى والحارث فى مسنديهما من حديث عائشة: أن الشق وقع مرة أخرى عند مجىء جبريل له بالوحى فى غار حراء والله أعلم.

ويختلف رأى العلماء فى معنى شق الصدر، فيذهب البعض منهم إلى أنه شق حقيقى، وأنه معجزة وقعت مرتين: قبل البعثة وبعدها.

فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاصاً للنبوة، وبشيراً بما ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مركز كبير، ومقام كريم، وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم، والتى تؤيد صدقه فى دعواه.

---

(١) فتح البارى ٢/ ٥ بتصرف.

كما يذهب البعض إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة، وإنما يقصد منه ما يفهم من قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك» وهى بذلك إشارة إلى تطهير الرسول صلى الله عليه وسلم من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس، والارتقاء به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية.

«وقال الشيخ الشرقاوى - فى فتح المبدى - عند الكلام على حديث شق الصدر ليلة الإسراء والمعراج: وفعل به ذلك لاستعداده للتلقى الحاصل له فى تلك الليلة، قال : ووقع له ذلك فى صغره عند مرضعته حليمة وهو ابن أربع لنزع العلقة التى هى حظ الشيطان منه، وفى كبره عند مجىء جبريل له بالوحى فى غار حراء، ليتلقى الوحى بقلب قوى، وروى شق الصدر أيضاً وهو ابن عشر أو نحوها، وروى مرة أخرى خامسة ولم تثبت. هـ».

وليست عملية شق الصدر استئصالا ماديا لغدة من الغدد فى داخل الجسم، أو قطعة لحم تقطع من داخل الجسد فيصبح بذلك خيراً، وإلا لأمكن استبعاد الشر واستئصاله من أى إنسان بعملية جراحية.. كلا، وإنما هى تطهير معنوى أخذت شكل الصورة المادية المحسوسة، ليكون فى ذلك بيان فريد وإعلان على مرأى ومسمع من الناس، فيشتهر أمر صاحب الرسالة الذى أعد للعصمة والوحى الإلهى؛ فكان مجىء شق الصدر بالوسيلة المادية المحسوسة أقرب ما يكون لأن يؤمن به الناس ويصدقوه، وليكون ذلك من الأسباب المعلنة، وما ذلك إلا بقدرة الله العزيز الحكيم»(١) .

---

(١) فى رياض من السيرة النبوية. راجع كتاب د.أحمد عمر هاشم ص٢٠ بتصرف.

وفاة أمه صلى الله عليه وسلم

توفيت أم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى السادسة من عمره، حين خرجت به إلى أخوال جده عبد المطلب، وهم بنو عدى بن النجار بالمدينة تزورهم، وكان معها أم أيمن بركة الحبشية، التى ورثها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيه، فنزلت فى دار النابغة، فأقامت به عندهم شهراً، وكان قوم من اليهود ينظرون إليه ويقولون: هو نبى هذه الأمة، وهذه دار هجرته، فسمعت أم أيمن قولهم، وأخبرت أمه بذلك فرجعت به إلى مكة.

فلما كانت بالأبواء(١) بين مكة والمدينة، توفيت أمه آمنة الزهرية، فقدمت به أم أيمن إلى مكة، بعد موت أمه بخمسة أيام، وحضنته بعد أمه، وكانت أم أيمن مربيته، وكان يقول لها فيما بعد: أنت أمى بعد أمى(٢) .

---

(١) الأبواء : مكان منخفض، تجتمع فيه السيول، وهو بين مكة والمدينة وبه قبر والدة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٦٨ بتصرف.

كفالة جده عبد المطلب

بعد وفاة أمه آمنة، كفله عليه السلام جده عبد المطلب، وكان يحبه حباً شديداً، قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب - يعنى بعد موت أمه آمنة بنت وهب - فكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له.

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى، فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وقال قوم من بنى مدلج لعبد المطلب: احتفظ به، فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذى فى المقام منه.

فقال عبد المطلب لأبى طالب: اسمع مايقول هؤلاء، فكان أبو طالب يحتفظ به. وقال عبد المطلب لأم أيمن - وكانت تحضنه : يا بركة لاتغفلى عن ابنى، فإنى وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة.

وكان عبد المطلب لايأكل طعاماً إلا يقول: علىَّ بابنى، فيؤتى به إليه، فلما حضرت عبد المطلب الوفاه أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياطته(١) .

---

(١) سيرة ابن كثير ١/٢٣٩ ، ٢٤٠.

لم يمهل القدر عبد المطلب بعد وفاة آمنة سوى عامين، ثم أدركته المنية ولايزال محمد فى الثامنة من عمره، وقد فزع محمد لفراق جده، وامتلأت نفسه بالحزن العميق، حتى لقد لفت هذا الحزن أنظار الناس وهم يشيعون عبد المطلب إلى مقره الأخير، فقد كانوا يرون محمداً - وهو الطفل الصغير - يمشى فى جنازة جده مطرق الرأس موزع الفكر دائم البكاء.

كفالة عمه أبى طالب

وبعد وفاة جده صلى الله عليه وسلم آلت كفالته إلى عمه أبى طالب وذلك حسب وصية جده عبد المطلب، فكان أبو طالب يختصه بحبه الشديد، وكان عليه السلام يبادله حبا بحب، حين وجده يكرمه، ويقدمه على كل أولاده.

وقد كان أبو طالب يستبشر بهذا الفتى الأكرم وبوجهه المشرق فيقول فيه:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وحين حدث قحط فى مكة، قصدت قريش إلى أبى طالب يستسقى لهم... فأخذ بابن أخيه محمد، فألصق ظهره بالكعبة، وراح يدعو... وما أن أشار الفتى محمد صلى الله عليه وسلم بيده حتى أخذت السحب تتجمع من كل جانب... والناس يمطرون ... والوديان تسيل..

وعندما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم الثانية عشرة من عمره، أراد عمه أبو طالب أن يسافر فى تجارة إلى الشام... وعز عليه أن يتركه بمكة، فصحبه معه حرصا عليه، فلما وصل الركب بهم مدينة

حوران (بصرى) - على حدود الشام - أنزلوا رحالهم ليريحوا أنفسهم من عناء الطريق .. وكان بالقرب منهم صومعة لواحد من أهل الكتاب، وهو (بحيرا) الراهب، واسمه جرجيس، وهو من عبد القيس، فقد كان حبراً من يهود تيماء، وهو ممن له علم بالكتاب؛ فعرف النبى صلى الله عليه وسلم بصفته الموضحة فى كتبهم، فأضاف قريشا، وكثيراً ما كانوا يمرون به قبل ذلك ولا يكلمهم، فقال لهم: إنى قد سنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأحب أن تحضروا جميعا: صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرا إن لك اليوم لشأنا، ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ فقال له بحيرا: صدقت، وقد أحببت أن أكرمكم. فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من دون القوم لحداثة سنه فلما نظر بحيرا فى القوم ولم ير تلك الصفة فى واحد منهم، قال: يا معشر قريش لا يتخلف أحد منكم عن طعامى، فقام أحد القوم، وأحضر النبى صلى الله عليه وسلم. فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديداً، ويقال إن هذا الراهب أخذ يسأل محمداً عن كثير من أحواله، وإن محمداً أخبره عن كل ما سأل عنه، فوجد هذا الراهب أن هذه الأوصاف هى أوصاف النبى الذى بشرت به التوراة والإنجيل.

وقال بحيرا لأبى طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابنى، قال: ما هو بابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا. قال: فإنه ابن أخى، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبا. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت

ليبغينه شراً، فإن لابن أخيك هذا لشأنا عظيما ، لما نجده فى كتبنا ورويناه عن آبائنا، وأعلم أنى قد أديت لك النصيحة، فأسرع به إلى بلده.

ولا شك أن هذه الرحلة كان لها أثر بالغ فى حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فلقد زادته معرفة فى أمور التجارة وفتحت بين يديه أبواب الأمل الواسع فى مستقبل عظيم.

وما حدث من قصة بحيرا الراهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى صباه من قبيل حفظ الله سبحانه وتعالى لنبيه قبل بعثته صلى الله عليه وسلم.

ومن مظاهر الرعاية الربانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا، وقوفه بعرفات، أى أنه عليه السلام لم يكن يقف بالمزدلفة ليلة عرفة كما كانت تفعل قريش، وإنما كان يقف مع الناس بعرفات، فقد كانت قريش تقف بمزدلفة بدل الوقوف بعرفات، تمييزا لنفسها عن غيرها من سائر العرب، قال يونس بن بكير عن محمد ابن إسحاق... عن جبير بن مطعم قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على دين قومه، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم، توفيقا من الله سبحانه وتعالى.

مشاركته صلى الله عليه وسلم
فى حرب الفجار(١)

بلغ صلى الله عليه وسلم العشرين من عمره، حينما خرج مع أعمامه إلى (حرب الفجار) وهى التى وقعت بين قريش وكنانة، وبين قيس عيلان، وفى الشهر الحرام.

قال ابن إسحاق: هاجت حرب الفجار ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة، وإنما سمى حرب الفجار، بما استحل هذان الحيان - كنانة وقيس عيلان - فيه من المحارم بينهم وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس.

استمرت الحرب بين الفريقين تنشب وتنقطع أربع سنوات متوالية، وانتهت بالصلح على دفع دية من يزيد على عدد قتلى الفريق الآخر، فدفعت قريش دية عشرين رجلا من هوازن.

وحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحرب مع أعمامه، وكان يجمع ما رماهم به أعداؤهم من النبل ويعطيه لأعمامه

---

(١) سميت حرب الفجار، لوقوعها فى الشهر الحرام، حيث كانت العرب تحترم الشهور الحرم، احتراما دينيا، حتى ان الرجل إذ رأى قاتل أبيه فى الأشهر الحرم، لم يتعرض له.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٨٦/١ ، ١٨٧.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كنت أنبل على أعمامى أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها(١) ».

واختلف المؤرخون، فى عمر النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ، بين أنه كان ابن خمس عشرة سنة(٢) ،أو كان عمره عشرين سنة(٣).

ولا خلاف بين الرأيين، فقد جمع الدكتور هيكل فى كتابه «حياة محمد(٤)» بين الرأيين فقال: لقد دامت هذه الحرب أربع سنوات فعندئذ يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد شهدها وهو فى الخامسة عشرة، وانتهت وقد قارب العشرين.

وحول عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرب الفجار، قال فريق: كان يجمع ما يقع من نبل هوازن ويعطيه لأعمامه؛ فيردونه فى صدور عدوهم، وقال فريق ثان: بل اشترك فى المعركة ورمى بالسهام، «ووضعت الحرب أوزارها، فأنصرفت قريش وقيس». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الفجار: «قد حضرته مع عمومتى، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أنى لم أكن فعلت(٥)».

ومما لا شك فيه أن اشتراك النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحرب، قد أعطى له صلوات الله وسلامه عليه خبرة عسكرية مبكرة، تمهيداً لأن يكون قائدا للأمة الإسلامية.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام .
(٢) المصدر السابق ١/ ١٧٠ .
(٣) الوفا بأحوال المصطفى ١/٢٢٤ .
(٤) حياة محمد ص ١١٧ .
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٨١.

شهوده صلى الله عليه وسلم
حلف الفضول(١)

كان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة، فى شهر ذى القعدة، بعد حرب الفجار بأربعة اشهر، وذلك لأن الفجار كان فى شعبان من هذه السنة.

حدث هذا الحدث الجليل وعمر النبى صلى الله عليه وسلم عشرون عاما.

وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع الناس به، وأشرفه فى العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب.

وكان ذلك على أثر مظلمة وقعت على رجل يمنى باع بضاعته على العاص بن وائل، فماطله العاص وحبس عنه حقه، فاستغاث الرجل بأشراف قرش فلم يجبه أحد، لمنزلة العاص بن وائل فيهم، فلما رأى الزبيدى ذلك، صعد جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة؛ فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهــــر لمظلوم بضــاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفــــر
ومحرم أشعث لم يقض عمـرته ... يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَر
إن الحرام لمن تمت كرامتــــه ... ولا حرام لثوب الفاجر الغــدر

---

(١) قال ابن الأثير فى كتابه «النهاية»: حلف الفضول سمى به تشبيها بحلف قديم بمكة أيام جرهم على التناصف، والأخذ للضعيف من القوى، والغريب من القاطن، قام به رجال من جرهم، كلهم يسمى الفضل، فمنهم: الفضل ابن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة.

فسمعه الزبير بن عبد المطلب فقال : ما لهذا مترك.

ودعا الزبير إلى هذا الحلف، فاجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة وبنو تيم فى بيت عبد الله بن جدعان وصنع لهم طعاما وتحالفوا وتعاقدوا على أن يكونوا يدأ واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه... ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى، فدفعوها إليه(١).

ولما سمع القوم بأمر هذا الحلف قالوا: لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمور، سموه حلف الفضول(٢).

وقد رفع هذا الحلف مكانة قريش بين قبائل العرب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم فى هذا الحلف، وقال صلى الله عليه وسلم: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت(٣)».

وعن عبد الرحمن بن عوف عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتى وأنا غلام فما أحب أن لى حمر النعم(٤) وأنى أنكثه(٥) ».

---

(١) راجع السيرة النبوية ١ / ١٢٢ : ١٢٣، الروض الأنف للسهيلى ١٥٥/١، ١٥٦.

(٢) البداية والنهاية ٢٥٩/١.

(٣) الكامل لابن الأثير ٢٧/٢.

(٤) حمر النعم: هى الإبل الحمراء، وهى أجود انواع الإبل.

(٥) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجاله رجال الصحيح ، راجع مجمع الزوائد ١٧٢/٨.

وقد ترك هذا الحلف العظيم فى نفس محمد أعمق الآثار، لأنه حلف إنسانى يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن حضور الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الحلف فى بداية شبابه يكسبه خبرة فى ممارسة العقود والمعاهدات، وإبرام الاتفاقيات.

مشاركته صلى الله عليه وسلم فى بناء الكعبة وحكمه بين المتنازعين

الكعبة المشرفة هى بيت الله الحرام، وهى أول بيت بنى على اسم الله لعبادة الله وتوحيده، كما أنها أول بيت وضع للناس، قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ(١)».

وقد ذكر العلماء فى بنائه أقوالا كثيرة.. ولكن الذى يعنينا فى هذا المقام بناء أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام... بناها بوحى من الله سبحانه وتعالى «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٢)».

كانت الكعبة المشرفة قبل عهد الإسلام بقليل قد تعرضت لحريق، من أثر شرارة طارت من مجمرة امرأة كانت تقوم بتبخيرها، فتصدع بعض بنيانها الذى كان من الصخر وعمد الخشب، ثم جاء سيل عظيم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قلائل، فازداد التصدع فى الكعبة، وتساقطت بعض أحجارها، فلم تجد قريش بدأ من إعادة تشييد الكعبة، حرصا على ما لها من حرمة وقداسة، كما كان إرتفاع الكعبة آنذاك لا يزيد عن القامة كثيراً، مما جعل رجال قريش يفكرون فى هدمها وعمارتها.

والذى يعنينا فى هذا هو بناء قريش للكعبة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد شارك الرسول صلى الله عليه وسلم فى

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦٧ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٧ .

بنائها وإعادة تشييدها، وكان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا إزاره، وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة في الأصح.

روى البخاري في صحيحه، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما بنيت الكعبة، ذهب النبي صلى الله عليه وسلم والعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: إجعل إزارك على رقبتك، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال: أرني إزاري، فشده عليه.

جمعت قريش الحجارة بين أجياد(١) والضواحي، وكان السادة والأشراف يجمعونها بأنفسهم تبركا بالكعبة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل معهم الحجارة على رقبته(٢).

وبعد أن اتفق كبار قريش على هدم الكعبة.. تهيبوا في بادئ الأمر، وظلوا كذلك حتى قال لهم الوليد بن المغيرة: إن الله لا يهلك من يريد الإصلاح، فقالوا: ومن الذي يعلوها فيهدمها؟ قال الوليد: أنا أعلوها، وأنا أهدمها، فأخذ المعول وارتقى على ظهر الكعبة، ومعه العباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم لا نريد إلا الأصلح، وبدأ يهدم من ناحية الركنين وهو يقول: اللهم لم ترع، اللهم لا نريد إلا الخير.

وتربص الناس به، فلما غدا معافى لم يصب بأذى أقبل الناس على الهدم حتى وصلوا إلى الأساس الذي بنى عليه إبراهيم عليه السلام(٣).

---

(١) أجياد: هو الوادي الواقع في جنوب الحرم مما يلي الصفا، وهو حي من أحياء مكة المكرمة. وأهل مكة يسمونه جياد بدون ألف في أوله.

(٢) تاريخ الكعبة لحسين باسلامة ص ٧٤.

(٣) السيرة النبوية ١/١٨٠.

وعندما انتهت قريش من هدم الكعبة، وأرادوا بناءها من جديد، قال لهم أبو وهب بن عمرة المخزومى: يا معشر قريش، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغى، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس(١).

وجاء فى صحيح البخارى أن أخذ قريش بنصيحة أبى وهب المخزومى هو الذى جعل قريشا لا تستطيع إعادة البيت على قواعده الأولى، حيث لم يستطيعوا أن يجمعوا من الكسب الطيب ما يكفى لذلك، فقصرت بهم النفقة.

فلما هموا بالبناء اختلفت القبائل، كل يريد أن ينال شرف المشاركة فى بناء الكعبة، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة - وكان أكبر قريش عمراً - : يا معشر قريش، لا تنافسوا، ولا تباغضوا فيطمع فيكم غيركم، ولكن جزئوا البيت أربعة أجزاء ثم ربعوا القبائل فليكن أرباعا، ثم اقترعوا عند هبل فى بطن الكعبة على جوانبها(٢).

فكان شق الباب لعبد مناف وزهرة، وكان بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش، وكان بنو عبد الدار، وبنو أسد عبد العزى وبنو عدى بن كعب على الجانب الشمالى الذى به الحجر، وكان ظهر الكعبة وهو الجهة الغربية لبنى جمح وسهم ابن عمرو بن هصيص.

وتنافس القوم فى البناء، فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، اختصمت قريش فى نقل الحجر الأسود إلى موضعه، كل قبيلة تريد

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تاريخ الكعبة ص ٧٤ .

الانفراد بهذا الشرف العظيم ألا وهو رفع الحجر الأسود، مما أدى إلى اختلافهم وتحاورهم، واستعدت كل القبائل للقتال، ومكث النزاع بينهم أربعة أيام، ثم اجتمعوا فى المسجد الحرام، فقال أبو أمية ابن المغيرة: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضى بينكم فيه(١). فاتفقوا على ذلك.

ولم يكن أبو أمية يقصد شخصا بعينه، فلم يكن يدرى أن محمداً صلى الله عليه وسلم أنه هو الشخص الذى بعثه الله سبحانه وتعالى لينقذ القوم من التناحر والاقتتال، وليهىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه ومكانته بين القوم.

وكان أول داخل من باب بنى شيبة هو محمد صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا بما يقضى به بيننا.

فلما انتهى إليهم رسول الله صلى الله أخبروه الخبر، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاره وبسطه على الأرض، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، رفعه عليه السلام بيده، ثم بنى عليه.

«ونحن نقف هنا وقفة المتأمل المحقق لنرى كيف وفق الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى هذا الحل؟ وكيف رضيت به قريش مع أن الظاهر أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذى استأثر بوضع الحجر؟ .

---

(١) السيرة النبوية ١/١٨٠ .

الحقيقة التى لا خلاف عليها هى ان محمداً قد حسم النزاع الملتهب الذى كاد يقضى على منزلة قريش بين العرب، وحفظ عليهم وحدتهم التى كانت معرضة للانهيار.

والحل الذى عرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان لم يحقق لأى من المتخاصمين الشرف الذى كان يطمع فيه بوضع الحجر الأسود، إلا أنه سوى بين الجميع فى حرمانهم من وضعه، فهدأت النفوس حيث لم تحظ به قبيلة دون غيرها، فى الوقت الذى بدا فيه الجميع وقد اشتركوا فى رفعه حتى بلغ موضعه(١)».

---

(١) تأملات فى سيرة الرسول. للدكتور محمد السيد الوكيل ص ٢٢ .

عمل النبى صلى الله عليه وسلم في شبابه

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم، مرحلة شبابه في العمل والسعى لكسب الرزق؛ فعمل صلى الله عليه وسلم في صباه برعى الغنم، روى البخارى في صحيحه(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم كنت أرعاها على قراريط(٢) لأهل مكة».

سعى النبى صلى الله عليه وسلم وراء رزقه رغم كفالة عمه له، بما يعطى نموذجا لأهمية العمل، وأن خير ما يأكله الإنسان ما كان من عمل يده، لقد كان سهلا على القدرة الإلهية أن تهىء للنبى صلى الله عليه وسلم وهو في بداية حياته من أسباب العيش والرفاهية ما يستغنى به عن الكد والعمل في رعاية الأغنام، ولكن حكمته جل وعلا أرادت أن تعلم البشرية جميعا في شخص النبى صلى الله عليه وسلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكد يمينه، لقاء ما يقوم به من الخدمة لمجتمعه، وقد أكسبه رعى الغنم الصبر والرحمة والشفقة والحماية، كما أكسبه الرفق والعطف، وذلك تمهيدا لما أعدته له العناية الإلهية من رعاية أمته ورحمتها قال تعالى «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه، كتاب الإجارة. كما أخرجه أيضا الإمام أحمد ومالك وأبو داود.

(٢) قراريط : جمع قيراط، ومختلف في وزنه من مكان لآخر، وهو في مكة ربع سدس دينار.

لِنتَ لَهُمْ . وَلَو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانفَضُّوا مِن حَولِكَ(١)».

وقد رعى النبى صلى الله عليه وسلم الغنم فى بادية بنى سعد، عندما كان طفلا صغيراً؛ فقد كان يخرج فى بيداء بنى سعد مع إخوته يرعون الغنم.

قال الحافظ ابن حجر(٢) - فى الحكمة فى رعى الغنم للأنبياء - قال العلماء الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة أن يكون التمرن برعيها تمهيدا لما يكلفون به من القيام بأمر أمتهم، ولأن فى مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وإذا علموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنو التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعى الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل أو البقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهى أسرع انقياداً من غيرها.

وفى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم إنه رعى الغنم حين سئل عنه، وبعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله، وفى هذا ما كان عليه

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٩.

(٢) فتح البارى ٥/٢٤٨ بتصرف.

من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

واشتغل صلى الله عليه وسلم - بعد رعى الغنم - بالتجارة، فعندما بلغ صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة خرج فى تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد، وكانت تاجرة تستأجر الرجال ليعملوا لها على شئ تجعله لهم.

روى الواقدى عن نفيسة بنت منية، قالت: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكاملت فيه خصال الخير، قال له أبو طالب: يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرها، فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها، فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، وفضلتك على غيرك، لما بلغها عنك من طهارتك، وإن كنت لأكره أن تأتى الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد من ذلك بدأ.

وكانت خديجة رضى الله عنها ذات شرف كبير، ومال كثير، وتجارة تبعث بها إلى الشام، فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع لهم المال مضاربة، وكانت قريش قوما تجاراً، ومن لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشئ.

فقال رسول الله عليه السلام : «فلعلها ترسل إلى فى ذلك فقال أبو طالب: إنى أخاف أن تولى غيرك، فتطلب أمراً مدبراً فافترقا.

وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا.

ثم أرسلت إليه فقالت: لقد دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك، وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك.

ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقى أبا طالب، وذكر له ذلك فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

خرج صلى الله عليه وسلم مع ميسرة - غلام خديجة - يريد الشام، وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمراً، ولا تخالف له رأيا. وجعل عمومته يوصون به أهل العير.

فسار صلى الله عليه وسلم فى السادس عشر من شهر ذى الحجة، سنة خمس وعشرين من ولادته، حتى بلغ سوق بصرى، فنزل فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب يدعى (نسطورا) فاطلع الراهب إلى ميسرة - وكان يعرفه - فقال: يا ميسرة من هذا الذى تحت الشجرة؟ فقال: رجل من قريش، من أهل الحرم، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى، فأتى (نسطورا الراهب) النبى صلى الله عليه وسلم وقال له: يا محمد، قد عرفت فيك كل العلامات الدالة على نبوتك المذكورة فى الكتب القديمة، خلا خصلة واحدة، فأوضح لى عن كتفك. فأوضح له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كتفه، فإذا بخاتم النبوة يتلألأ فأقبل عليه يقبله، ويقول : أشـهد أنك رسول الله النبى الأمى الذى بشربك عيسـى ،

فإنه قال: لا ينزل بعدى تحت هذه الشجرة إلا النبى الأمى، الهاشمى العربى المكى، صاحب الحوض والشفاعة، ولواء الحمد، فحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى؛ فباع سلعته ورجع إلى مكة، وكان وصوله فى ساعة الظهيرة، وكانت خديجة فى عالية مشرفة، فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير وملكان يظلانه، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرها بما ربحوا، فسرت بذلك، وأخبرها ميسرة بما سمعه من (نسطورا) الراهب، وما رآه من علامات النبوة، ومن إظلال الشجرة والملكين، فباعت خديجة ما جاء به من سوق بصرى، وربحت ضعف ما كانت تربحه، وأضعفت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمته له من الأجر.

زواجه من السيدة خديجة رضى الله عنها

هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، بن قصى، القرشية الأسدية، تجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصى، وهو الجد الثالث لها.

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد، ابن معيص، بن عامر بن لؤى.

ولدت خديجة مع نهاية سنة ٥٦٧ للميلاد... ونشأت فى بيئة صلاح وسؤدد، فهى من كبار بيوتات قريش فى مكة، وسليلة أسرة كريمة، وهى من ذوى الجاه وطيب النسب، وكان اشتغال أبيها بالتجارة شجعها على أن تطرق هى كذلك هذا المجال، لتحقق فيه نجاحا وتفوقا... هذا فى الوقت الذى كانت تعرف فيه باسم (الطاهرة) كما لقبها قومها، لما كانت عليه من نبل وحصانة وعزة وشرف.

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها تحت النباش، ويكنى أبا هالة، ابن زرارة التميمى، فولدت له هندأ وهو من الصحابة وهالة، - وهما ذكران - ومات زوجها أبو هالة فى الجاهلية.

ثم تزوجت بعده عتيق بن عابد المخزومى، فولدت له بنتا اسمها هند أسلمت وصحبت النبى صلى الله عليه وسلم.

أعجبت السيدة خديجة رضى الله عنها بعظيم أمانته صلى الله عليه وسلم، ولعلها دهشت لما نالها من البركة بسببه، فكانت حريصة على الاقتران برسول الله صلى عليه وسلم فعرضت نفسها عليه بواسطة صديقتها نفيسة بنت منية، فقالت له نفيسة: ما يمنعك

أن تتزوج، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بيدى ما أتزوج به، قالت: فإن كفيت، ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة والشرف ألاتجيب؟ قال: فمن هى؟ قالت: خديجة. قال: وكيف لى بذلك؟ قالت: على. قال: فأنا أفعل.

فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه وقالت له: يا ابن عم، إنى قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك، وحسن خلقك وصدق حديثك، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته، فتزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة(١). وقد ظلت مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن بلغت سن الخامسة والستين، ثم ماتت فى العام العاشر من البعثة النبوية.

وأصدقها الرسول صلى الله عيله وسلم عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وأنجبت له كل ولده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، سرية النبى صلى الله عليه وسلم التى أهداها إليه المقوقس عظيم القبط فى مصر(٢)، ولدتخديجة له عليه السلام: القاسم والطيب وفاطمة ورقية وزينب وأم كلثوم، وقد ماتوا جميعا فى حياته عدا فاطمة رضى الله عنها.

وكانت خديجة رضى الله عنها مثلا صادقا للوفاء والإخلاص والأمانة والتعاون؛ فعاشرته أحسن عشرة ورافقته أفضل رفقة، وأحبته أعظم محبة، وكانت لا ترى منه ميلا إلى شئ إلا بادرت بادرت به إكراماً له وتودداً إليه.

---

(١) الأصابة ٤/٢٨٢.

(٢) السيرة النبوية ١/١٧٤ — ١٧٥ .

بعض البشائر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

ولقد تحدث القرآن الكريم مشيراً إلى ما جاء فى التوراة والإنجيل عن محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قال عز من قائل: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ(١)».

فمنذ أقيم البيت الحرام قبل عشرات القرون.. وأمام هذا الرمز العظيم لبيت الله بمكة المكرمة، وقف سيدنا ابراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام - يدعوان سبحانه وتعالى أن يبعث بالرسول الخاتم ليعلم الناس الكتاب والحكمة، روى ابن سعد فى الطبقات عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشر بى عيسى ابن مريم».

وهذا المعنى مشار إليه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى(٢): «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ..» إلى قوله تعالى: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ».

فهذه هى دعوة إبراهيم.

---

(١) سورة الأعراف - الآية : ١٥٧.
(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٧ .

أما بشرى عيسى ابن مريم عليه السلام به مذكورة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: «وَإِذ قَالَ عِيسَى ابنُ مَريَمَ يَابَنِىَ إِسرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَىَّ مِنَ التَّورَاةِ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأتِى مِن بَعدِى اسمُهُ أَحمَدُ»(١) .

ولقد تحدث القرآن الكريم مشيراً إلى ما جاء فى التوارة والإنجيل عن محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك مثل قوله تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِندَهُم فِى التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأمُرُهُم بِالمَعرُوفِ وَيَنهَاهُم عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنهُم إِصرَهُم وَالأَغلَالَ الَّتِى كَانَت عَلَيهِم»(٢) .

وجاء فى التوارة والإنجيل أخبار عن النبى محمد وأوصاف تؤيد صدقه فى نبوته. وهى دلائل قوية كانت كافية لإقامتهم على المحجة الواضحة، لولا ماران على قلوبهم من أكدار الحقد والحسد.

روى عن ثعلبة بن هلال وكان من أحبار اليهود، حينما سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال له: أخبرنى بصفات النبى، صلى الله عليه وسلم فى التوراة. فقال: إن صفته فى توراة بنى هارون التى لم تغير ولم تبدل هى: «أحمد من ولد إسماعيل بن ابراهيم، وهو الآخر الأنبياء، وهو النبى العربى الذى يأتى بدين ابراهيم الحنيف، معه صلاة لو كانت فى قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان، ولو كانت فى عاد ما أهلكوا بالريح، ولو كانت فى ثمود ما أهلكوا بالصيحة.

---

(١) سورة الصف الآية : ٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٧.

يولد بمكة، وهو أمى لايكتب ولايقرأ المكتوب، وهو الحماد يحمد الله فى الشدة والرخاء، صاحبه من الملائكة: جبريل، يلقى من قومه أذى شديداً، ثم تكون له الدولة عليهم، فيحصدهم حصيداً، تكون الواقعات بيثرب منها عليه ومنه عليها، ثم له العاقبة، معه قوم هم أسرع إلى الموت من الماء من رأس الجبل إلى أسفله، صدورهم أناجيلهم، وقربانهم دماؤهم. ليوث النهار، رهبان الليل، وهو يرعب العدو مسيرة شهر، يباشر القتال بنفسه، ثم يخرج ويحكم، لاحرس ولاحجاب، الله يحرسه»..

وجاء فى إنجيل برنابا فى الفصل التاسع والثلاثين :

«إن آدم لما انتصب على قدميه رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس، نصها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فلما سأل عن محمد قال الله له: إنه ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد آلاف السنين، والذى متى جاء سيعطى للعالم الهدى والنور)(١) .

وفى موضع آخر فى كتاب الإنجيل (برنابا) قال عيسى ابن مريم عليه السلام لتلاميذه: «لذلك أقول لكم، إن رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تعالى تقريباً.. لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة، روح الحكمة والقوة، روح الخوف والمحبة، روح التبصر والاعتدال، مزدان بروح المحبة والرحمة، روح العدل والتقوى ،

---

(١) راجع كتاب منحة القريب المجيب فى الرد على عباد الصليب لعبد العزيز آل معمر، وكتاب محمد نبى الإسلام فى التوراة والإنجيل والقرآن للاستاذ الطهطاوى. «نقلا من كتاب: القول المبين فى سيرة سيد المرسلين» للدكتور محمد الطيب النجار.

ورح اللطف والصبر التى أخذ منها الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه، ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم..».

وفى مجرى حديث مع معلم المسيحية الأول: السيد عيسى ابن مريم عليهما السلام - كما جاء فى إنجيل (برنابا) فقد ورد فى الفصل السادس والتسعين ما ننقله هنا بالنص، دلالة على مجىء محمد صلى الله عليه وسلم ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين:

«ولما انتهت الصلاة، قال الكاهن بصوت عال: قف يا يسوع، لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكيناً لأمتنا، أجاب يسوع: أنا عيسى ابن مريم من نسل داوود، بشر مائت ويخاف الله، وأطلب أن لايعطى الإكرام والمجد إلا لله. أجاب الكاهن: إنه مكتوب فى كتاب موسى أن إلهنا سوف يرسل لنا مسياً (رسولا) سيأتى ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتى العالم برحمة الله. لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق: هل أنت مسياً (رسول) الله الذى ننتظره؟ أجاب يسوع: حقاً إن الله وعد هكذا ولكنى لست هو، لأنه خلق قبلى ويبعث بعدى، أجاب الكاهن: إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبى وقدوس الله، لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حباً فى الله بأية كيفية سيأتى مسياً.

أجاب يسوع: لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى: إنى لست مسياً الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، ولكن عندما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله، فيتنجس لسبب هذا كلامى

وتعليمي حتى لايكاد يبقى ثلاثون مؤمناً، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبادة الأصنام، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر، وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً، وقد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه، فأجاب الكاهن مع الوالى والملك قائلين: لاتزعج نفسك يايسوع قدوس الله، لأن هذه الفتنة لاتحدث فى زمننا مرة أخرى، لأننا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى المقدس بإصدار أمر ملكى أن لا أحد يدعوك بعد: الله أو ابن الله، فقال حينئذ يسوع: إن كلامكم لايعزينى لأنه يأتى ظلام حيث ترجون النور، ولكن تعزيتى هى فى مجىء الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فى، وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم، وأن ما يعزينى هو أن لانهاية لدينه لأن الله سيحفظه صحيحا.

فقال الكاهن: ماذا يسمى مسيأ؟ وماهى العلامة التى تعلن مجيئه؟

أجاب يسوع: إن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى، قال الله: اصبر يا محمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة وجمعاً غفيراً من الخلائق التى أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً، ومن يلعنك يكون ملعونا، ومتى ارسلتك إلى العالم لم أجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن أيمانك لايهن أبداً، وإن اسمه المبارك محمد.

حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين: يا الله ارسل لنا رسولك. يامحمد تعالى سريعاً لخلاص العالم). ١ .هـ.

وعندما اقترب يوم الميلاد الأغر، ميلاد نبى الهدى والرحمة، المصطفى صلى الله عليه وسلم، كانت السماء تشارك فى بث الإشارات مما كان يلحظه القسيسون والرهبان ممن لهم علم بالكتاب.

وروى ابن كثير(١) عن الإمام أحمد بسنده إلى عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوارة فقال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن «يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحزراً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ.. الخ».

وهذا المعنى هو المشار إليه فى قوله تبارك وتعالى «الَّذِينَ آتَيناهُمُ الكِتَابَ يَعرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ أَبنَاءهُم وإِنَّ فَرِيقاً مِنهُم ليَكتُمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعلمُونَ»(٢) .

وقوله عز وجل «مُحَمدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضلًا مِن اللَّهِ ورِضوَاناً، سِيمَاهُم فِى وُجُوهِهِم مَن أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُم فِى التَّورَاةِ وَمَثَلُهُم فِى الإِنجِيل كَزَرعٍ أَخرَجَ شَطأَهُ فَآزَرَهُ فاستَغلَظَ فَاستَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ»(٣) .

هكذا عرف اليهود والنصار ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه آخر الأنبياء والرسل، ولكنهم جحدوا ذلك عناداً وتكبراً وعلم

---

(١) السيرة لابن كثير ١/٢٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية : ١٤٦ .

(٣) سورة الفتح الآية : ٢٩ .

الأنبياء إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي مصدقاً لما أنزلوا به من عند الله، قال تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ. قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ»(١) .

---

(٢) سورة آل عمران الآية : ٨١ .

حياة الخلوة والتأمل

أما عن تعبده صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، فكان صلى الله عليه وسلم كلما تقدمت به الحياة ازداد انطواء عنَ حياة الناس، لما كانوا فيه من التيه والضلال، وحبب إليه الخلوة والاعتزال، فكان يخلو بغار حراء(١) ؛ فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد.

فمنذ استقرار حياة محمد صلى الله عليه وسلم بعد زواجه من خديجة رضى الله عنها بدأ يفكر ويطيل التفكير فيمن حوله، فيراهم سائرين فى غيهم وظلماتهم، عاكفين على عبادة الأصنام، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يستنكر ذلك منهم منذ صباه، وذكر الواقدى عن أم أيمن قالت: كانت بوانه صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك له، وتحلق عنده، وتعكف عليه يوماً إلى الليل كل سنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه، ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك، قالت: حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، ويقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولاتكثر لهم جمعاً ؟!

فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع مرعوباً فزعاً، فقلن له: ما دهاك؟ قال: «إنى أخشى أن يكون بى لمم».

---

(١) يقع فى جانب من جبل النور، الذى يقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكة المكرمة شمال طريق عرفة، على بعد ساعة واحدة من مكة بالسير على الأقدام.

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك. فما الذى رأيت ؟ قال: «إنى كلما دنوت من صنم تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى: وراءك يامحمد لاتمسه».

قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى نبىء صلوات الله عليه).

ويتساءل محمد صلى الله عليه وسلم فى نفسه: كيف يمكن أن يعبد الإنسان العاقل صنما لايعقل ولا يفكر ولايسمع ولايبصر ولايضر ولاينفع؟ وكيف يمكن أن يوجد هذا العالم وما يحويه من عجائب وأسرار دون حاجة إلى خالق له عظيم بصير قوى قادر وعزيز، عليم حكيم؟!

وأشرقت نفسه بهذه الرياضة الروحية العالية التى كان بدايتها التأمل والنظر، فكان لايرى صلى الله عليه وسلم رؤيا إلا وقعت وجاءت مثل فلق الصبح ليس فيها أوهام ولا أضغاث أحلام.

ثم حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة والانقطاع عن الناس، فكان يخلو بغار حراء ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد، ويحمل معه الطعام والماء، فإذا فرغ رجع ليتزود لغيرها، ثم ينطلق إلى الغار ليتعبد.

وكانت هذه العبادة على دين إبراهيم عليه السلام، وقيل كانت بالتفكير والتأمل فى الكون وما يحيط به من أسرار تدل على وجود قدير «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير». «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب» .

وقد لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العبادة عن طريق التأمل والنظر والتفكير حينما رأى قومه وعشيرته قد أحاطت بهم

ظلمات الشرك والضلال، وغرقت أذهانهم فى عبادة الأصنام، وعندما رأى أن المسجد الحرام وهو أقدس الأمكان وأطهرها محاطاً بالأحجار من الأصنام والأوثان.

أذاً، تعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلوته واعتزاله قبل البعثة كان أساسه التفكير فى آيات الله الكونية، والتأمل فى مظاهر الطبيعة ودلائل الإبداع الإلهى فى نظام الوجود، وسيره على سنن متناسقة مقدرة، تدل على حكمة التدبير والابداع.

«وكان فى جانب منه قائماً على أساس ماثبت عنده صلى الله عليه وسلم من معالم الحنيفة ملة جده إسماعيل عليهما السلام، ودليل ذلك القاطع ما التزمه صلى الله عليه وسلم من تعظيم للكعبة المشرفة والطواف بها على رغم ما كانت تعج به ساحتها من الأصنام والأوثان التى كانت أبغض شىء إلى نفسه المطهرة، ولم يمنعه هذا البغض للأصنام والأوثان من التمسك بما ثبت عنده من شرعه تعظيم بيت الله المحرم الذى رفع قواعده جداه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام».

وهذا التعظيم للبيت لم يكن من قبيل عبادة التفكير على أساس سجات العقل فى مظاهر الكون وآياته الباهرة، وإنما كان من قبيل اتباع ملة إبراهيم فيما عرف أنه بقى منها فى أعمال الناس وأذهانهم.

والعقل فى منطقة بمعزل عن ادراك شرعية هذا الجانب من هذا التعبد وحكمته فهو تعبد عملى شرعه الله فى ملة إبراهيم عليه السلام، وعرفه محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، واطمأنت نفسه إلى شرعيته، فعبد الله به كما عبده بمحض التفكر والتأمل فى بديع جلال الكون وما أودع الله فيه من آيات حتى جاءه الحق ،

وبعثه الله رسولا إلى الناس كافة بشيراً ونزيراً، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً، على رأس أربعين سنة من عمره الشريف المبارك، فصلوات الله وتسليماته وبركاته عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، ما تعاقب الليل والنهار»(١).

وحينما أراد الله أن يعلى كلمته ويتم نعمته، أذن للحق بالظهور لكى يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فجاء الوحى الأمين جبريل عليه السلام إلى محمد الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، وقد بلغ أشده وقد بلغ الأربعين.

وفى مقر خلوته وأثناء تأمله وتفكيره صلى الله عليه وسلم جاء جبريل عليه السلام بوحى ربه تعالى، وقد كان بدء الوحى يوم الأثنين السابع عشر من شهر رمضان، يوافق عام ٦١٠ للميلاد كما حققه أكثر المؤرخين.

جاء جبريل عليه السلام ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار، ومعه صحيفة، فضمه ضمة شديدة حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله وقال له: اقرأ. فأجابه الرسول: ما أنا بقارىء.

وسوف نسوق هنا حديث(٢) السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى، الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتخث فيه -

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم لعرجون ٢٣٠ وما بعده.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب بدء الوحى: باب كيف بدأ الوحى.

وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ. قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال:

«اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِن عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، اَلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»(١) .

وهكذا ابتدأت دعوة الحق نوراً أضاء أرجاء المعمورة، نوراً ملأ الأقطار والأمصار، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وكان بداية هذا النور غار حراء.

وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب نزول الوحى عليه يرجف فؤاده، فدخل على زوجته خديجة رضى الله عنها، وقال: زملونى .. زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم أخبر زوجته السيدة خديجة بما وقع له فى غار حراء.

ولقد جاء تصوير ذلك فى القرآن الكريم فى صورة نداء خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا»(١) .

---

(١) سورة العلق الآيات : ١ - ٥ .

(٢) سورة المزمل الآيات : ١ ، ٢ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للسيدة خديجة: لقد خشيت على نفسى، فطمأنته السيدة خديجة، وبينت له أن وراء هذا الحادث خيراً كثيراً، حيث قالت له: والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان عنده علم بالكتب السماوية، فلما سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى أدرك أن هذا هو الوحى الذى كان ينزل على الأنبياء من قبل، فبشر محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون نبى هذه الأمة.. حيث قال له: والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، وإن قومك سيكذبونك ويؤذونك ويخرجونك ويقاتلونك، فقال صلى الله عليه وسلم متعجباً: «أو مخرجى هم؟».

وتمنى ورقة بن نوفل لو يطول به العمر حتى تظهر رسالة محمد؛ فيكون من أنصاره وأعوانه.. ولكن شاء الله أن يموت ورقة قبل أن تتحقق أمنيته.

وفتر الوحى بعد ذلك مدة من الزمان، اختلف العلماء فى تحديد هذه المدة، حددها ابن اسحاق رحمه الله بثلاث سنين، حيث قال: وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتربه، إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين(١) .

وروى الامام أحمد عن الشعبى: أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٢٧/١ .

فكان يعلمه والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل، فنزلت عليه القرآن على لسانه عشرين سنة(١) .

وعلى هذا تكون فترة الوحى عند الإمام أحمد ثلاث سنين كما هى عند ابن اسحاق.

وأما السهيلى(٢) فيرى أن مدة الرؤية الصالحة ستة أشهر، ومدة فترة الوحى سنتان.

وفى رواية لابن سعد(٣) يذكر فيها أن فترة الوحى كانت أياماً، ويستدل بحديث ابن عباس رضى الله عنهما، الذى جاء فيه «مكث أياماً بعد مجيء الوحى لايرى جبريل فحزن حزنا شديداً حتى كاد يغدو إلى بثير مرة وإلى حراء أخرى يريد أن يلقى نفسه، فبينما هو كذلك عامداً لبعض تلك الجبال إذ سمع صوتاً فوقف فزعاً، ثم رفع رأسه فإذا جبريل على كرسى بين السماء والأرض متوبعاً يقول: يامحمد، أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل، فانصرف وقد أقر الله عنيه، وانبسط جأشه ثم تتابع الوحى .

ومن العلماء من قال أن مدة هذه الفترة أربعون يوماً فحسب، ومنهم(٤) من قال أن المدة كانت ستة أشهر.

ومع هذه الأقوال من العلماء من يرجح أنها ثلاث سنين وآخرون يقولون أنها أربعون يوماً.

---

(١) فتح البارى ٢٧/١ .
(٢) الروض الأنف ٤٢٣/٢ .
(٣) الطبقات ١٩٦/١.
(٤) هو الإمام البيهقى، راجع فتح البارى ٢١/١.

ولكن العقل والمنطق مع فترة الوحى الطويلة سواء كانت ثلاث سنين أو أقل من ذلك، ولكن لاتصل إلى أيام، لأنها لو كانت أياماً لما ضاق بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما بلغت من نفس الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المبلغ.

ولكن هذه المدة على قصرها مرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنها الدهر، ولاعجب فى ذلك، فقد اشتد به الشوق لنزول الوحى عليه وخاف أن يكون الله قد حرمه من هذه النعمة الكبرى، ولكن الله سبحانه وتعالى رحم رسوله الكريم من هذه الحيرة الأليمة، فتتابع عليه الوحى، ونزل قوله سبحانه: «يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ، قُم فَأَنذِر، وَرَبَّكَ فَكَبِّر، وَثِيَابَكَ فَطَهِّر، وَالرُّجزَ فَاهجُر، وَلَاتَمنُن تَستَكثِر، وَلِربِّكَ فَاصبِر»(١).

ويقسم له ربه، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ما ودعه ربه وما قلاه فقال الله تعالى: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى»(٢) أى ما حرمك فتركك، وما أبغضك منذ أحبك.

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أمر الله، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى.

---

(١) سورة المدثر الآيات : ١ — ٧ .
(٢) سورة الضحى الآية : ٣ .

الباب الثالث

من دعوته صلى الله عليه وسلم إلى هجرته

١ - مراحل الدعـوة .
٢ - الدعوة سـراً .
٣ - الدعوة جهـراً .
٤ - الهجرة إلى الحبشة .
٥ - مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى عبد المطلب وحصارهم فى الشعب.
٦ - خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلي الطائف.
٧ - الإسراء والمعراج .
٨ - لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبائل.
٩ - بيعة العقبة الأولى .
١٠ - بيعة العقبة الثانية .

مراحـــل الدعـــوة

كان لابد للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يبلغ دعوته، التى بعث بها إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بأمره وسراجاً منيراً.

مبنياً للناس طريق الحق والخير، ويباعد بينهم وبين الشر والضلال.

وقد مرت الدعوة بمراحل، قسمها ابن القيم(١) إلى مراتب فقال: «المرتبة الأولى: النبوة، الثانية: إنذار عشيرته الأقربين، الثالثة: إنذار قومه، الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة، الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر».

أما المرتبة الأولى، وهى مرتبة النبوة، فقد تحدثنا عنها عند الحديث على بعثته صلى الله عليه وسلم، وما حدث قبل ذلك من أعداد من الله سبحانه تعالى لنبيه، تمهيداً لتحمل أعباء الرسالة.

---

(١) زاد المعاد ١/٣٤.

الدعوة سراً

وهى المرحلة الثانية بعد النبوة، وقد استمرت ثلاث سنوات، فقد سارت الدعوة الإسلامية فى أول عهدها سرية، بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يستجيب لأمر الله، فأخذ يدعو إلى عبادة الله الواحد الصمد ونبذ عبادة الأصنام، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سراً حذراً من وقع المفاجأة على قريش التى كانت متعصبة لشركها ووثنيتها، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يظهر الدعوة فى المجالس العامة لقريش، ولم يكن يدعو إلا من كانت له به صلة قرابة، أو معرفة سابقة.

وكان لابد من هذه المرحلة ـ الدعوة سراً ـ فى مثل الظروف وتلك البيئة التى بعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد جاءهم بدين لم يعرفوه، وبادأهم بأمر لم يألفوه، وعبادة لم يتعودوا عليها من قبل، فلو واجههم بهذا الدين لأول وهلة، لمنعوا بينه وبين الناس، ولم يمكنوه من تبليغ دعوته، فالمرحلة السرية كانت فرصة للتربية والتكوين والإعداد لهؤلاء الذين آمنوا به ليعلمهم ويفقههم فى الدين، ويربيهم تلك التربية التى تعينهم على النهوض بالعبء الكبير والثقيل الذى ينتظرهم، فهى مرحلة إعداد لهؤلاء السابقون الأولون حتى يشتد عودهم، وتقوى على تحمل البلاء نفوسهم، فعندئذ يجاهرون بدينهم، ويصدعون بالحق الذى أشربته قلوبهم غير مهتمين بأذى المؤذين، ولاتكبر المتكبرين، وليكون بعد ذلك ما يكون.

وكان أول من آمن به صلى الله عليه وسلم، السيدة خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم، رضى الله عنها، فقد صدقت بالدعـوة من بدايتها، وآمنت بما جاء به وآزرته، وخففت عنه كل عداء، وهونت عليه أمر الناس.

قال ابن كثير(١) : وآمنت خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله وآزرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بما جاء، فخفف الله بذلك عن رسوله، لايسمع شيئا يكرهه من رد عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رضى الله عنها وأرضاها، وكان ذلك قبل أن تفرض الصلاة».

وآمن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وصدق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من ربه وعمره اذ ذاك عشر سنين.

فما كاد يسمع منه النبأ العظيم حتى بادر لإعلان إسلامه، وكان يلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما خرج إلى الصلاة مستخفياً فى شعاب مكة حتى عن أهله وأبيه..

ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاء الخير الكثير باسلام أبى بكر الصديق رضى الله عنه، قال ابن إسحاق(٢) : حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ماعكم عنه - أى تلبث - حين ذكرته، ولاتردد فيه.

فقد كان الصديق رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى عليه وسلم قبل البعثة، وكان يعلم من صدقه وأمانته وحسن سجيته وكرم

---

(١) سيرة ابن كثير ٤٢٦/١.
(٢) سيره ابن كثير ٤٣٢/١.

أخلاقه مايمنعه من الكذب على الخلق فكيف يكذب على الله سبحانه وتعالى ؟.

ونشط أبو بكر رضى الله عنه فى الدعوة رغم سريتها، ولكن وضعه كتاجر محبوب يألفه الناس لحسن خلقه، وكريم معاملته مكنه من الاتصال بمن يثق فيهم، ودعوتهم إلى الإسلام، فآمن بالله ورسوله ودخل فى الإسلام على يديه كبار الصحابة، عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله(١) .

ثم دخل الإسلام بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة، والأرقم بن أبى الأرقم وغيرهم.

وأسلم بعد هؤلاء جماعة شرح الله صدورهم للإيمان، وظل عدد المسلمين ينمو ويزداد حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به.

وقد بلغ عدد السابقين إلى الإسلام ثلاثة وخمسين بين رجل وامرأة حسبما ذكرا بن هشام.

وكانوا يلتقون بالنبى صلى الله عليه وسلم سراً، ولكن لما كثر العدد أختار لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبى الأرقم مقراً، وفى هذه الدار كان يجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجماعة المسلمة الأولى، وكانت هذه الدار بمكة على الصفا - وهى معروفة الآن باسم دار الخيزران(٢) - وكان رسول الله صلى الله

---

(١) سيرة ابن هشام ١٢٢/١.

(٢) كان قد اشترى هذه الدار الخليفة أبو جعفر المنصور وأعطاها لولده المهدى، ثم أعطاها المهدى للخيزران أم ولديه موسى الهادى وهارون الرشيد، وسميت باسمها من ذلك التاريخ إلى اليوم.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقيمون الصلاة فيها سراً إلى أن نزل الأمر بالدعوة إلى الإسلام جهاراً.

وفى دار الأرقم كان يجتمع هؤلاء السابقون برسول الله صلى الله عليه وسلم، والإسلام ما يزال بعد فى أول عهده.. إنه فى مرحلته السرية، ولذلك ما أن ترامى الخبر إلى سمع قريش إلا وسعت جاهدة فى محاولة القضاء عليه.

وقد أسلم كثير من سادات قريش بعد دخول دار الأرقم وكان أولهم مصعب بن عمير، وآخرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وعز الله سبحانه وتعالى الإسلام بدخول عمر رضى الله عنه فى الإسلام؛ فبدخوله ، وحمزة قوى أمرهم وعزوا وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحميانه من خصومه ومن أذى من يريد به وبالمسلمين شراً.

وبدخول عمر رضى الله عنه فى الإسلام تمت المرحلة السرية للدعوة؛ فلم يرضى عن صلاة المسلمين خفية فى شعاب مكة، وإنما راح عمر يناضل قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه.

وصدق ابن مسعود رضى الله عنه حين قال: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

الدعوة جهراً

كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم - كما سبق أن بينا - إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم.

فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر يصلون بشعاب مكة إذا ظهر عليهم بعض المشركين، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه، فكان أول دم هريق فى الإسلام، وروى الأموى فى مغازيه من طريق الوقاصى عن الزهرى عن عامر بن سعد عن أبيه فذكر القصة بطولها، وفيه أن المشجوج هو عبد الله بن خطل لعنه الله(١) .

ثم بعد ذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث سنين من البعثة بأن يصدع بما أمر وأن يصبر على أذى المشركين، قال الله تعالى: «فَاصدَعْ بِمَا تُؤمَرُ وَأعرِضْ عَنِ المشْرِكِينَ»(٢) .

كما أمره سبحانه وتعالى أن ينذر عشيرته الأقربين، فقال تعالى «وَأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبِينَ، وأخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنَ اتبَعَكَ مِنَ المؤمِنِينَ»(٣) .

وحينئذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أمر ربه، هذه الدعوة الصريحة للانطلاق بالإسلام إلى خطوة أكبر فاستجاب

(١) سيرة ابن كثير ٤٥٣/١-٤٥٤.

(٢) سورة الحجر الآية : ٩٤.

(٣) سورة الشعراء الآيات : ٢١٤،٢١٥.

لقوله تعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» بأن صعد على الصفا - وهو جبل معروف فى مكة ومنه يبدأ السعى بين الصفا والمروة - فجعل ينادي: يابنى فهر، يابنى عدى، حتى اجتمعوا، فجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر: ما هو؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟ فنزل قوله تعالى: «تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ»(١).

وهكذا جابه الرسول صلى الله عليه وسلم المشركين، وانتزع من أفواهم ذلك التصريح الخطير الذى أصبح حجة عليهم لايستطيعون انكاره.

اعترف القوم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم: ما جربنا عليك كذباً، عندئذ أنذرهم وحذرهم، وأخبرهم بأنه رسول إليهم من رب العالمين.

ولم يكن من القوم رد فعل يذكر، اللهم إلا هذا الموقف، وتلك الكلمات التى قالها أبى لهب، فإنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: تبأ لك، ولكن ردها عليه رب محمد، الله عز وجل، بل سجلها عليه فى آيات تتلى بين دفتى المصحف، منذ أن نزلت إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها؛ فكانت لعنة عليه فى الدنيا حتى يلقى جزاءه فى الآخرة، فقال الله تعالى: «تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ، مَآأَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ»(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) سور المسد.

ثم نزل قوله تعالى : «وانذر عشيرتك الأقربين» بأن جمع من حوله، جميع ذويه وأهل قرابته وعشيرته، فقال: يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، بابنى مرة بن كعب: أنقذوا أنفسكم من النار، يابنى عبد شمس: أنقذوا أنفسكم من النار، بابنى عبد مناف. انقذوا أنفسكم من النار، يابنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار، يافاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلاها(١) .

لم يقلق هذا الإنذار المشركين كثيرا، ولم يحرك نفوسهم نحو شىء يخيفهم؛ فمحمد وإن كان نهج منهجاً جديداً، واتخذ إلهاً غير آلهتهم إلا أنه لم يذكر آلهتهم بشىء يكرهونه، ولم يعب عليهم أمراً يفعلونه، فلا بأس إذن أن يقول مايشاء، وأن يعبد ما يشاء.

وكان رد الفعل من قريش أمام جهره بالدعوة، أن أدبروا عنه وتنكروا لدعوته معتذرين بأنهم لايستطيعون أن يتركوا الدين الذى ورثوه عن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم.

وحينئذ نبههم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية الاتباع والتقليد، واستعمال العقل والمنطق، وأوضح لهم أن آلهتهم التى يعبدونها من دون الله لاتضر ولاتنفع، وأن ما ورثوه عن الآباء والأجداد من عبادات ليس عذراً، وقال الله تعالى فى شأنهم : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا ما أنزل الله

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، ومعنى قوله: سأبله ببلاها: أى سأصلها بصلتها.

قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون»(١) .

فلما عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، وجر اعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأصنام بأنها تقاليد آبائهم وأجدادهم إلى وصف آبائهم بعدم العقل، فاجمعوا على خلافه وعداوته.

«ولم يكن ذلك الموقف العدائى من مشركى مكة ليهدىء من حماس الرسول صلى الله عليه وسلم للدعوة والتفانى فى سبيلها؛ بل كان حافزاً على النشاط فى إذاعتها والمضى فى سبيل انتشارها، مؤمناً كل الإيمان، واثقاً كل الثقة بأن يدى أبى لهب هالكتان، وأنه لن يتمكن من العبث بالدعوة والوقوف فى سبيل انتشارها بين أهل مكة، ولقد أسلم من زهد فى الدنيا، ومن لايلهيهم تجارة ولابيع عن النظر فى هذه الدعوة الجديدة التى كانت قائمة على التسامح والمحبة والعطف والمودة، والتى كان شعارها الحرية الحبيبة إلى نفس كل عربى يسكين شبه الجزيرة العربية، فلا سلطان لغير الله وحده، أما (هبل) و (اللات) و (العزى) وغيرها من الأصنام فلا تضر ولاتنفع، بل ولاتغنى عن نفسها شيئاً»(٢) .

قال الله تعالى : «قل من رب السموات والأرض قل الله، قل أفا تخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً، قل هل يستوى الأعمى والبصير؟ أم هل تستوى الظلمات والنور»(٣) . «قل أتدعون من دون الله مالا ينفعنا ولايضرنا»(٤) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٠.
(٢) القول المبين فى سيرة سيد المرسلين ص٨٨، ٨٩.
(٣) سورة الرعد الآية : ١٦.
(٤) سورة الأنعام الآية : ٧١.

«يَا أَيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسلُبهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لَّا يَستَنقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطلُوبُ»(١) .

وايذاء ذلك تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم إلى كثير من الأذى والاضطهاد، أما عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد لاقى كثير من الأذى بل لقد أوذى من إظهار دين الله، وإعلان كلمته أشد الإيذاء وتوعد بالقتل وغير ذلك، ولقد تحدث صلى الله عليه وسلم عن إيذائه فى بدء الدعوة حيث كان وحيداً فى تبليغ رسالته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد أوذيت فى الله، وما يؤذى أحد، وأخفت فى الله وما يخاف أحد»(٢) .

وسوف نذكر هنا بعض ألوان العذاب والاضطهاد التى تعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما عجز المشركون عن محاورته، ولم يجدوا لديهم من الحجج ما يردوا به دعوته، بل أفحمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحجج القرآن القاطعة وبما فتح الله عليه من آياته الكبرى.

أجمع المشركون على إيذائه صلى الله عليه وسم كفراً منهم وحسداً له صلى الله عليه وسلم، حيث أكرمه الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة دونهم، وفضله على سائر البشر.

فمن ذلك الإيذاء، ماروراه ابن مسعود حيث قال: بينما النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى المسجد ، إذ قال أبو جهل بن هشام :

---

(١) سورة الحج الآية : ٧٣.

(٢) رواه أحمد وابن حبان وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح.

لا رجل يقوم إلى جزور آل فلان؟ فيعمد إلى فرثها، ودمها وسلاها(١) ، فيجئنى به، ثم يمهله حتى إذا سجد، وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لى منعة طرحته عن ظهره، والنبى صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى أنطلق إنسان، فأخبر فاطمة فجاءت فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى صلاته، رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط، وذكر السابع، ولم أحفظه، فوالذى بعث محمداً بالحق لقد رأيت الذى سمى صرعى، ثم أسحبوا إلى القليب قليب بدر(٢) .

وفى رواية ذكر السابع عمارة بن الوليد.

ومن ذلك أيضاً، ما روى عن طارق المحاربى أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السوق يقول: «أيها الناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» ورجل خلفه يرميـه بالحجارة وقد أدمى عقبه(٣) ، ويقول لاتطيعوا محمداً فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد وعمه أبو لهب.

---

(١) السلى : بسين مشددة وفتح اللام، جلدة فى البطن.
(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى.
(٣) العقب : مؤخر القدم .

وكذلك ما فعلته زوج أبى لهب وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان، فكثيراً ما كانت ترمى الشوك فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلقى بالقاذورات أمام بيته، ولم تترك عملا فيه إيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم إلا وفعلته، بل كانت تسب الرسول صلى الله عليه وسلم وتذمه، وتوقع العداوة بينه وبين الناس، فأنزل الله فى شأنها ما يدل على ما ينتظرها يوم القيامة من سوء المصير حيث يقول : «وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ»(١) .

كما أن الكفار يريدون قتل الرسول صلى الله عليه وسلم، فروى عن عروة ابن الزبير(٢) أنه قال : سألت عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله. قال: بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى حجر الكعبة، إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبى بكر رضى الله عنه حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال : «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ»(٣) . فكفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبى بكر يضربونه.

وعن أنس رضى الله عنه قال : لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة حتى غشى عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادى:

ويلكم، «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله». فقالوا: من هذا؟ قالوا: أبو بكر المجنون فتركوه. وأقبلوا على أبى بكر(٤) .

---

(١) سورة المسد .
(٢) رواه البخارى .
(٣) سورة غافر الآية : ٢٨.
(٤) رواه أبو يعلى البزار ورجاله رجال الصحيح.

وكذلك الكفار يسبون القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، قال ابن عباس رضى الله عنهما: «ولا تجهر بصلاتك ولاتخافت بها» أنزلت والنبى صلى الله عليه وسلم متوار بمكة، وكان إذا رفع صوته سمعه المشركون، فسبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال: «ولاتجهر بصلاتك» أى بقراءتك حتى يسمعها المشركون، «ولاتخافت بها» أصحابك فلاتسمعهم، «وابتغ بين ذلك سبيلا» أسمعهم ولاتجهر حتى يأخذوا عنك القرآن(١) .

أما أبو جهل لعنه الله، فكثيراً ما أساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ينهاه عن الصلاة ويتوعده، ولكن الله سبحانه وتعالى يتولى الدفاع عن نبيه، قال ابن عباس: كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى، فجاء أبو جهل، فقال: ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبى صلى الله عليه وسلم فزبره، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى، فنزلت: «كَلَّا. لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعَن بِالنَّاصِيَةِ: نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ. سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ. كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب»(٢) قال ابن عباس : والله لو دعانا ناديه لأخذته زبانية الله(٣) .

ومن ألوان ايذائه صلى الله عليه وسلم ما كان من الوليد بن المغيرة عم أبى جهل، وهو من أكابر قريش، ومن أشهر من كادوا للرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه الشيخان والترمذى والنسائى.
(٢) سورة العلق الآيات : ١٥ - ١٩.
(٣) رواه أحمد والنسائى والترمذى وقال : حسن صحيح.

سمع القرآن مرة من النبى صلى الله عليه وسلم فقال لقومه: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه».

فقالت لقريش: صبأ والله الوليد، لتصبأن قريش كلها. فقال أبو جهل: أنا أكفيكوه. ثم توجه إليه وجلس أمامه حزيناً، وكلمه بما حمسه ضد محمد، مما جعل الوليد يأتى القوم فى ناديهم ويخاطبهم قائلا: أتزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يهوس.. وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن.. وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟

فقالوا فى ذلك: اللهم لا. ثم قالوا: فما هو؟ ففكر قليلا ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه فرق بين الرجل وأهله وولده؟ فاهتز النادى فرحاً بهذا الرأى الذى سيفرق بين محمد وعشيرته، وسيباعد بينه وبين الناس، وأنزل الله رداً عليه فى آيات بينات مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم: «ذَرنى وَمَن خَلقتُ وَحيداً، وَجَعلتُ لَهُ مَالاً مَمدُوداً، وَبنينَ شُهُوداً، وَمَهَّدتُ لَهُ تَمهيداً، ثُمَ يَطمَعُ أن أزِيدَ، كَلاَّ إنهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً، سَأُرهِقُهُ صَعُوداً، إنَّهُ فَكرَ وَقَدرَ، فَقُتِلَ كَيفَ قَدرَ، ثُم قُتِلَ، كَيفَ قَدرَ، ثُم نَظَرَ، ثُم عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُم أدبَرَ واستَكبَرَ، فَقَالَ إن هَذآ إلاَّ سِحرٌ يُؤثَرُ، إن هَذَآ إلاَّ قَولُ البَشَرِ، سَأُصلِيه سَقَرَ»(١).

(١) سورة المدثر الآيات: من ١١ - ٢٦.

ومن ذلك أن أبا جهل ابتاع من شخص يقال له: الأراشى نسبة إلى أراشة، بطن من خثعم، أجمالا فماطله بأثمانها، فوقف الرجل على نادى قريش فقال: يا معشر قريش من رجل يعننى على أبى الحكم بن هشام؟ فإنى غريب، وابن سبيل، وقد غلبنى على حقى.

فدلته قريش على النبى صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبى جهل، استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم، لعلمهم بأنه لايقدر على أبى جهل، فجاء إلى رسول اله صلى الله عليه وسلم فذكر له حاله مع أبى جهل وقال له: قد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لى حقى منه، فأشاروا إليك فخذ حقى منه يرحمك الله.

فخرج النبى صلى الله عليه وسلم مع الرجل إلى أبى جهل وضرب عليه بابه فقال من هذا؟ قال: محمد فخرج إليه وقد امتقع لونه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعط هذا حقه». قال: نعم لاتبرح حتى أعطيه الذى له، فدفعه إليه، ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً - يعنى النبى صلى الله عليه وسلم - فقد والله أخذ لى بحقى، وقد كانوا أرسلوا رجلا ممن كان معهم خلف النبى صلى الله عليه وسلم. وقالوا له: انظر ماذا يصنع؟ فسألوا الرجل ماذا رأيت؟ قال: رأيت عجباً والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه ومعه رمحه فقال: اعط هذا الرجل حقه. فقال: نعم فأخرج له حقه فعند ذلك قالوا: لأبى جهل ويلك ما رأينا مثل ما صنعت، قال: ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعباً.

هذا وقد رأى المشركون أن سياسة التعذيب والإيذاء لم تفيد مع محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه، ورأوا عمه قد قام دونه، فلجأوا

إلى حيلة أخرى: حيث مشى جماعة من أشراف قريش إلى عمه أبى طالب، وقالوا له: يا أبا طالب أن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه احلامنا، وضلل أباءنا، فأما أن تكفه عنا، وأما أن تخلى بيننا وبينه، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه؟ فردهم أبو طالب برفق ولين وانصرفوا.. ومضى صلوات الله وسلامه عليه، فى إظهار دين الله، وفى الدعوة إليه، فعادوا الكرة مرة أخرى على أبى طالب بعد أن اشتد الأمر بينه وبينهم، فقالوا له:

يا أبا طالب أن لك سناً وشرفاً، ومنزلة فينا، وانا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم أبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وأياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

وعندئذ عظم على أبى طالب فراق قومه وعدواتهم، وفى نفس الوقت لايمكن أن يفرط فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى حمايته، فقال أبو طالب للرسول صلى الله عليه وسلم:

يا ابن أخى، أن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، للذى كانوا قالوا له، فأبق على وعلى نفسك، ولاتحملنى من الأمر مالا أطيق، قال: فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم أجابه كلها قوة وإيمان، وصاح بعبارته التى ظلت خالدة على مر التاريخ، لأنها عنوان الشجاعة فى الحق، وآية على التفانى فى سبيل العقيدة، فقال: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته». ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام،

فناداه أبو طالب قائلا له: أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه، فقال: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، والله لا أسلمك لشىء أبداً.

وبهذا تكون قد فشلت حيلة المشركين هذه، فى محاولتهم فصل عمه أبى طالب عنه، وتخليه دونه.. بل أنه حتى لو حدث هذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يتخلى عن دعوته حتى لو قايضوه عليها بالشمس والقمر فى يديه.. بل حتى لو هلك فى سبيل ذلك..

فهذا بعض ما وقع منهم من الأذى والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما عن موقفهم من أصحاب الرسول الذين اتبعوه وأيدوه فقد كان أشد قسوة وعنفاً؛ فكانوا إذا سمعوا برجل أسلم، له شرف ومنعه لاموه ووبخوه، وتهددوه وآذوه بقدر ما يتسنى لهم، وإن كان ضعيفا ضربوه، وعذبوه أشد العذاب، فقد أحرقوهم بالنار، وصبوا عليهم الماء شديد الحرارة، وألقوهم فى حر الظهيرة على بطحاء مكة، ووضعوا الأحجار الضخمة على صدورهم، وضربوهم بالسياط حتى تقطعت أجسامهم، وجردوهم من ثيابهم، وألبسوهم دروع الحديد فى الحر الشديد، وربطوهم بالحبال من أعناقهم وسلموهم إلى الصبيان يعبثون بهم.

وحسبنا ما روى عن بلال ابن رباح رضى الله عنه؛ فلقد لاقى من أمية بن خلف أنواعاً من العذاب، وألواناً من الأذى، لايصبر عليها إلا مؤمن قوى الإيمان، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده على وجهه وظهره، ثم يضع حجراً على صدره، ويقول له: ستظل هكذا حتى تكفر عجمد وتؤمن باللات .. ولكنه احتمل

وصبر على الأذى والنكال وكلما التمسوا منه جواباً، لايرد عليهم إلا بتلك الكلمة التى ملكت نفسه ومشاعره «أحد.. أحد».

وقد رآه أبو بكر الصديق يوماً يقاسى أشد العذاب، فقال لسيده أمية، ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ فقال : أنت أفسدته وفتنته عن دين آلهتنا وعبادة أصنامنا.. فعرض عليه أبو بكر ثمناً له، ومازال يساومه حتى اشتراه واعتقه فى سبيل الله، وفى هذا نزل قوله تعالى: «فَأَنذَرْتُكُم نَاراً تَلظَّى، لَايَصْلاهَا إلَّا الأَشْقَى، الَّذِى كَذَّبَ وَتَولَّى، وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى، الَّذِى يُؤتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لِأحدٍ عِندَهُ من نِعمَةٍ تُجزَى، إلَّا ابتِغَاءَ وَجهِ رَبهِ الأَعلَى وَلسوفَ يرضَى»(١) .

وكذلك ما روى عن عمار بن ياسر، وأمه سمية، وأخيه عبد الله، فكانوا يعذبونهم أشد العذاب مرة بالنار، وأخرى بالضرب، وغير ذلك من أنواع العذاب لأجل أن يخرجوهم من دين الإسلام، فمر بهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال : «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة». فمات ياسر فى العذاب، وأعطيت سمية أم عمار لأبى جهل يعذبها، وكان الذى أعطاها له عمه أبو حذيفة بن المغيرة، لأنها كانت مولاته، فأخذها أبو جهل وعذبها تعذيباً شديداً رجاء أن يفتنها فى دينها، فلم تجبه لما يسأل، ثم طعنها فى فرجها بحربة فماتت، وكان أبو جهل يلبس عماراً درعاً من حديد فى اليوم شديد الحر ويطرحه فى الرمضاء.

وأما خباب بن الأرت فكان يعذب بالنار، يوقدون النار ويضعونها على ظهره فما يطفيها إلا ودك ظهر - أى شحم ظهره -

---

(١) سورة الليل الآيات : من ١٤ - ٢١.

فأتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة، وقال : يا رسول الله ألا تدعوا الله لنا؟ فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم محمراً وجهه، فقال له: إن كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه ليظهرن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(١) .

وقد كان ممن أوذى فى الله، أبو بكر الصديق رضى الله عنه على الرغم من مكانته فى قريش، فلقد وجه إليه المشركون كثيراً من الأذى، حتى خرج مهاجراً إلى الحبشة، فلقيه «ابن الدغنة، وهو رجل من سادات العرب، فسأله: إلى أين يا أبا بكر؛ فقال : أخرجنى قومى ، وإنى أريد أسيح فى الأرض وأعبد ربى».

فقال : مثلك يا أبا بكر لايخرج، وأنت فى جوارى وحماى، فرجع معه، وعرفت قريش ذلك، فطلبت قريش من ابن الدغنة أن يأمر الصديق بعبادة ربه فى داره، ولايجهر بصلاته وقراءاته، وقالوا إنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فلبث أبو بكر فى داره يعبد ربه، ثم بدا له أن يبنى مسجداً بفناء داره، فبناه وكان يصلى ويقرأ القرآن، فيهرع إليه نساء المشركين وأبناؤهم ينظرون إليه ويستمعون إلى ما يقرأ، فأفزع ذلك أشراف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، وقالوا له: إن أبا بكر قد أخل بالشروط، فابتنى مسجداً، وأسمع الناس صلاته وقراءته ، وقد

---

(١) رواه البخارى .

خشينا الفتنة على نسائنا وأبنائنا. فأتى ابن الدغنة أبا بكر وقال له : إما أن تلتزم شرط الجوار، وإما أن ترجع إلى ذمتى.

فقال أبو بكر : إنى أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله، وكان ذلك سبباً فى أن ألحق بأبى بكر الكثير من الأذى والاضطهاد.

هذا بعض ما كان يصنعه المشركون، من تعذيب الموالى والمستضعفين من المسلمين، ليكرهوهم على الخروج من دين الإسلام، هذا إلى جانب ما كانوا يسمعونه من فحش القول واللغو من الكلام أينما كانوا، فلا يزدهم ذلك إلى استمساكاً بدينهم وحرصاً على عقيدتهم .

الهجرة إلى الحبشة

هى أول هجرة فى الإسلام، وقعت فى شهر رجب، من السنة الخامسة للبعثة النبوية، وذلك لما رأى النبى صلى الله عليه وسلم مايصيب أصحابه من الأذى، وأن المشركين يشتدون فى ذلك، ويبالغون فى تعذيبهم، وأنه لايقدر أن يمنع أذاهم أو يحميهم، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لايظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

فخرج إلى الحبشة كل من خاف الفتنة، فراراً إلى الله بدينه؛ فكان الذى هاجر إليها أحد عشر رجلا، وأربع نسوة.

أما الرجال فهم : عثمان بن عفان، عبد الرحمن بن عوف، الزبير بن العوام، أبو حذيفة بن عتبة، مصعب بن عمير، أبو سلمة ابن عبد الأسد، عثمان بن مظعون، عامر بن ربيعة، سهيل بن بيضاء، أبو سبرة بن أبى رهم العامرى، حاطب بن عمرو.

وأما النساء فهن: رقية بنت النبى صلى الله عليه وسلم زوجة عثمان بن عفان، وسهلة بنت سهل امرأة أبى حذيفة، وأم سلمة بنت أبى أمية امرأة أبى سلمة،وليلى بنت أبى خيثمة امرأةعامر بن ربيعة.

وكان أول من خرج مهاجراً عثمان بن عفان، وزوجته رقية رضى الله عنهما، روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة؛ فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما، فقدمت امرأة من قريش، فقالت: يا محمد قد رأيت ختنك ومعه امرأته، قال: (على أى حال رأيتهما؟) قالت: رأيته قد

حمل أمرأته على حمار من هذه الدبابة، وهو يسوقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام)(١) .

لم يستقر المهاجرون فى الحبشة أكثر من ثلاثة أشهر، عادوا بعدها إلى مكة آملين أن يجدوا فيها الهدوء والأمن إلى جوار رسول الله ومن أقام معه من المسلمين، ولكنهم لم يكادوا يبلغون مشارف مكة حتى وجدوا الحالة أسوأ مما تركوها، فهابوا أن يدخلوا مكة، حتى استجار كل رجل منهم برجل من قريش، ودخل مكة فى جواره، ومنهم من عاد إلى الحبشة دون أن يدخل مكة.

والسبب فى رجوع المسلمين من الحبشة، هو ما علموا به من إسلام حمزة وعمر واعتقادهم أن بإسلامهم سيعتز المسلمين وتقوى شوكتهم.

ولكن قريشاً واجهت إسلام حمزة وعمر رضى الله عنهما بتدبيرات جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى، وإيذاء هذا العنف رجع المسلمون إلى الحبشة مرة أخرى وانضم إليهم عدد كبير ممن لم يهاجروا قبل ذلك.

ولم تكن هجرة من هاجر إلى الحبشة مقصورة على الفرار من الفتنة فقط، بل صحبها محاولة إقامة قاعدة صلبة للدعوة هناك تحميهم، حيث لم تعد مكة بلداً آمنة للدعوة.

---

(١) أخرجه البيهقى والطبرانى،وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد٩/٨٠،٨١ فيه الحسن بن زياد البرجمى لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

وفى ذلك يتحدث الاستاذ سيد قطب رحمه الله فيقول: (ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة.. سبقها الاتجاه إلى الحبشة حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل، والقول بأنهم هاجروا لمجرد النجاة بأنفسهم لايستند إلى قرائن قوية. فلو كان الأمر كذلك، لهاجر إذن أقل الناس جاهاً وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالى المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم - فى بيئة قبلية - ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة..)(١) .

أما عن الهجرة الثانية إلى الحبشة: فقد تمت بعد عام واحد من رجوع المسلمين الذين خرجوا فى المرة الأولى، وذلك لأن المسلمين وجدوا أن موقف العنف والاضطهاد من قريش لم يتغير، بل ازداد شدة وخطورة، وتبين لهم أن إسلام حمزة وعمر قد زاد من حقد المشركين وطغيانهم.

من أجل ذلك فكر كثير ممن هاجر إلى الحبشة فى المرة الأولى أن يعود إليها، كما صحبهم غيرهم، وخاصة حينما علموا من هاجروا أول مرة مالقوه من الأحباش من إعزاز وتقدير وما وجدوه من ترحيب النجاشى بهم.

وبلغ عدد المهاجرين هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا، وتسع عشرة امرأة، أقاموا عند النجاشى على خير حال آمنين على أرواحهم مطمئنين على عقيدتهم، يعبدون الله كما أمرهم، ويبشرون بدعوته كلما اتيحت لهم الفرصة.

---

(١) فى ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب م١/١/٢٩.

وكان هذا العدد الكبير الذي هاجر فى المرة الثانية إلى الحبشة مقلقا لقريش فأرسلوا وراءهم إلى النجاشى رسولين يغرونه بالهدايا ويتقربون إليه بمايحبه، فأرسلوا «عمرو بن العاص» و «عمارة بن الوليد» ومعهما الهدايا النفيسة إلى النجاشى لكى يرد المسلمين إلى مكة. فلما دخلا عليه قالا : أيها الملك، إن نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا، وجاءوا بدين ابتدعوه، لانعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا أشراف قومهم لتردهم إليهم.

وقد أبى النجاشى أن يرد المسلمين الذى هاجروا إليه حتى يسمع مقالتهم ويبعث فى طلبهم؛ فلما جاءوا سألهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم؟ فرد عليه جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك: كنا قوماً نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا نعرف نسبة وصدقه وأمانته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وحسن الجوار، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، فصدقنا وآمنا برسالته فعذبنا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام، فلما ظلمونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك.

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شىء تقرؤه على؟ قال جعفر: نعم، وتلا عليه «سورة مريم» من أولها إلى قوله تعالى «وَبَراً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وَلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً»(١) .

---

(١) سورة مريم الآيتان : ٣٢ ، ٣٣.

فقال النجاشى : إن هذا هو ما جاء به موسى، وسيدنا يسوع المسيح. أنطلقا فوالله لاأسلمهم أبداً.

وهنا زادت ثقة النجاشى بالمهاجرين، ومنحهم إقامة دائمة فى بلده، وأمنهم على أرواحهم وعقيدتهم قائلا :«اذهبوا فأنتم سيوم فى بلدى - أى آمنون فيها - من سبكم غرم، فلا هوادة اليوم على حزب إبراهيم، ما أحب أن لى دبراً - أى جبلا - من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم»(١) .

وطرد رسولى قريش من مجلسه، وأمر برد الهدايا إليهم، وقال: «لاحاجة لى فيها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه»(٢).

وأخرج الرسولين مقبوحين لم يظفرا بما جاءا من أجله، وعادا إلى مكة بخيبة الرجاء، وعاش المسلمون إلى جوار النجاشى فى أمن وسلام، واستقروا إلى أن كانت الهجرة الكبرى إلى المدينة.

---

(١) مختصر السيرة لعبد الله بن عبد الوهاب ص٩٧.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩١/١.

مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى عبد المطلب وحصارهم فى الشعب

بعد أن أسلم حمزة وعمر رضى الله عنهما اشتد فزع قريش، وأمام هذا الخطر الجسيم الذى هدد قريش وأفزعها، وأصبح وجود محمد وأصحابه فى مكة مثاراً للقلق ومبعثاً للشكوك.

ولم يكن للمشركين هم أعظم من محاولة صد الناس عن هذا الدين، ولم يكن عندهم مايشغلهم أكثر من تفكيرهم فى وقف هذا التيار العنيف الذى حطم هذه الآلهة التى يعتزون بها، وقد سيطر هذا التفكير على عقولهم فأضلها، واستولى على قلوبهم فضاقت بالحق كما ضاقت بمن جاءوا بالحق فأجمعوا على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية.

فلما رأى أبو طالب عمل القوم، جمع بنى عبد المطلب، وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله.. فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً، فلما علمت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجمعوا على ذلك، اجتمع المشركون من قريش، فأجمعوا أمرهم على ألا يجالسوهم، ولايبايعوهم، ولايدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا فى مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق : لايقبلوا من بنى هاشم صلحا أبدا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

وبدأوا فى تنفيذ المقاطعة فى أول محرم سنة سبع من مبعثه صلى الله عليه وسلم، وأحكم المشركون الحصار، حتى كان المسلمون

لايستطيعون مغادرة الشعب إلا فى الموسم من كل عام، واستمر الحصار على ذلك ثلاث سنين.

وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وتوثيقاً للصحيفة حتى لايجترء أحد على الغدر بما فيها أو تمزيقها، وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى الشعب لم يتخلف منهم أحد إلا أبا لهب فإنه انضم إلى قريش وظاهرهم.

فجهد النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون جهداً شديداً فى هذه الأعوام الثلاثة، حتى أجهدهم الحصار، وأضربهم طول المقام، وكان لايصلهم شىء من الطعام إلا سراً يستخفى به من يريد إرساله إليهم.

وفى الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط(١) وورق الشجر، وذكر السهيلى أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتى أصحاب رسول الله إلى السوق ليشترى شيئاً من الطعام يقتاته لأهله، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لايدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافاً، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يده شىء يعللهم به.

طال الحصار، واشتد الضيق، وأوشك المسلمون على الموت جوعاً، لولا أن ربط الله على قلوبهم فصبروا وثابروا، وأراد الله سبحانه وتعالى لنبيه أن يخرج من هذه المحنة بمعجزة تدين القوم، وتكشف مدى تعسفهم، وتفضح تماديهم فى الباطل.

---

(١) الخبط : ورق الشجر: لايقع على الأرض ألا بالمخابط.

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى الشعب يوماً إلى عمه وقال ياعم، إن ربى قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان.

قال أبو طالب : أربك أخبرك بهذا؟ قال : نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً رفعت إليكم ابن أخى.

قال القوم رضينا، وتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإن هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شراً.

ثم أذن الله سبحانه وتعالى لهذا الليل الطويل بالانتهاء، فقام خمسة من كرام الرجال هم : هشام بن عمرو وزهير بن أمية والمطعم بن عدى، وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود، فشقوا صحيفة هذه المقاطعة وأعلنوا نقضها.

فكان نقض الصحيفة سنة عشر من البعثة وعادت بنو هاشم وبنو المطلب إلى منازلهم، وصاروا فى تجارتهم، ومعايشهم، كما كانوا قبل كتابة الصحيفة.

خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعب بقليل، مات أبو طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وماتت خديجة رضى الله عنها بعده بأيام قلائل سواء كانت ثلاثة أيام كما روى ابن عبد البر(١) ، أم خمسة وثلاثين يوما كما روى ابن سعد(٢) .

وقد كانت خديجة رضى الله عنها - كما ذكر بن هشام - وزير صدق علي الإسلام، يشكو الرسول إليها ويجد عندها آنسه وسلواه، أما أبو طالب، فقد كان عضداً وحرزاً فى إمره ، وكان ناصراً له على قومه.

فلما ماتا أبو طالب وخديجة نالت منه قرش ما لم تكن تطمع فيه فى حياتهما جتى وطئ عقبة بن أبى معيط على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان، وبصق أمية بن خلف فى وجهه، ووضع السفهاء التراب على رأسه صلى الله عليه وسلم، وقد أطلق رسول الله على هذا العام (عام الحزن) .

عندئذ رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى الطائف لعله يجد فيها من يؤوية وينصره حتى يبلغ رسالة ربه .

وفى شهر شوال سنة عشر من البعصة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم ماشيا إلى الطائف، وعمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ ساداته، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وتحدث معهم بما جاءه من عند الله، فردوا عليه رداً منكراً، وفاجأوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة

---

(١) الاستيعاب ٢٨٩/٤.

(٢) الطبقات ٢١١/١.

وسمج القول، ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج رأسه عدة شجاج(١) ، حتى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بستان لعتبة بن ربيعة، فرجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه .

فعمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أنهكه التعب والجراح، إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه، فلما اطمأن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الظل، رفع رأسه يدعو إلى الله ويقول : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى. ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى(٢) حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) .

فلما رأى ابنى ربيعة (عتبة وشيبة) ما أصاب محمداً من جهد وتعب : رقا له، وتحركت فيهما نخوة الكرم ، فأرسلا إليه عبدهما المسيحى (عداسا) من العنب، فلما وضع عداس العنب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له: كل، مد الرسول يده قائلا : بسم الله ثم أكل، فقال عداس متعجبا : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه

---

(١) الطبقات الكبرى : ١٩٦/١.

(٢) العتبى : الرضا .

البلاد، فقال له الرسول: ومن أى البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى (قرية بالبصرة)، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس: وما يدريك من يونس بن متى؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ذلك أخى، كان نبيا وأنا نبى.. فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه(١) .

قال ابن إسحاق: ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعا إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى فمر به النفر من الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى فإستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وآجابوا إلى ما سمعوا. وقد قص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ»(٢)إلى قوله تعالى «وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ». وقوله تعالى: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ»(٣) ... الآيات .

ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة يريد دخول مكة، فقال له زيد : كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟ فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . ثم أرسل رجلا من خزاعة إلى مطعم بنى عدى يخبره أنه داخل مكة فى جواره ،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٤٠ .

(٢) سورة الأحقاف الآية: ٢٩-٣١ .

(٣) سورة الجن الآية : ١ .

فإستجاب مطعم لذلك. وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكـة(١) .

وأما عن رواية ابن اسحاق فلابد أن نقف عندها ونناقش استماع النفر من الجن إليه صلى الله عليه وسلم، وهو يصلى من جوف الليل بنخلة، ففى هذه الرواية دليل على وجود الجن وأنهم مكلفون وأن منهم من آمن بالله ورسوله. ومنهم من كفر ولم يؤمن، وهذا قد جاء مدللا عليه بالقرآن الكريم، كما ورد فى الآيات التى فى صدر سورة الجن، وفى سورة الأحقاف قوله تعالى «وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعونَ الْقُرْآنَ إلى قوله تعالى» «وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» .

والقصة التى وردت عند ابن اسحاق ورواها ابن هشام فى سيرته، قد ذكرها البخارى ومسلم والترمذى على نحو قريب .

واللفظ الذى رواه البخارى(٢) بسنده عن ابن عباس، أنه صلى الله عليه وسلم انطلق فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين فقالوا: بما لكم قد حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب؟ قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة وهـو عامد

(١) طبقات ابن سعد ١/١٩٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٦/٧٣ .

إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له، فقالوا: هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم: قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن، وإنما أوحى إليه قول الجن.

أما رواية مسلم والترمذى، زادا على رواية البخارى فى صدر الحديث «ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم انطلق فى طائفة ....» الحديث.

قال بان حجر فى الفتح حول الجمع بين رواية البخارى، وروايتا مسلم والترمذى - فكأن البخارى حذف هذه اللفظة عمدا، لأن ابن مسعود أثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الجن، فكان ذلك مقدما على نفى ابن عباس، وقد أشار إلى ذلك مسلم، فأخرج عقب حديث ابن عباس هذا، حديث عن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أتانى داعى الجن فانطلقت معه فقرأت عليه القرآن. ويمكن الجمع بالتعدد، أى يمكن الجمع بين الروايتين بتعدد الحادثة.

وقد جاء فى روايات البخارى ومسلم والترمذى، اختلاف عما رواه ابن اسحاق وذلك من ناحيتين.

الأولى : أن رواية ابن إسحاق خالية من الإشارة إلى أنه كان يصلى صلى الله عليه وسلم بأصحابه، بل هى تفيد أنه كان يصلى منفردا، فى حين أن الروايات الأخرى ذكرت أنه كان يصلى بأصحابه.

الثانية : أن رواية ابن إسحاق ليس فيها تقييد الصلاة بالفجر، والروايات الأخرى تنص على أنه كان يصلى الفجر.

فأما رواية ابن اسحاق فلا إشكال فيها، غير أن الرواية الأخرى تشكل من ناحيتين:

الأولى : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن معه فى ذهابه إلى الطائف ورجوعه منها إلا زيد بم حارثة - كما قد علمت - فكيف يستقيم أنه كان يصلى بطائفة من أصحابه؟

الثانية : أن الصلاة لم تشرع إلا ليلة الإسراء والمعراج، وإنما كان المعراج بعد ذهاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، على ما ذهب إليه كثير من المحققين، فكيف يتفق ذلك مع أنه كان يصلى الفجر ؟

أما الجواب على الإشكال الأول :

أنه يحتمل أن يكون قد التقى ببعض أصحابه عندما وصل إلى نخلة - وهو مكان قريب من مكة - فصلى بهم الفجر هناك.

أما الإشكال الثانى، فيرد عليه بأن حادثة الجن واستماعهم للقرآن الكريم منه صلى الله عليه وسلم تكرر أكثر من مرة، فقد رويت مرة عن ابن عباس، ورويت بصورة أخرى عن ابن مسعود، وكل منها صحيح، وهذا ما ذهب إليه جمهور المحققين(١)، هذا على القول بأن حادثة الإسراء والمعراج كانت بعد الهجرة إلى الطائف، أما على القول بأنها كانت قبل ذلك فلا إشكال.

---

(١) راجع فتح البارى ٤٧٢/٨، وعيون الإثر لابن سيد الناس ١١٨/١.

الإســـراء والمعـــراج

بعد عشر سنوات من الدعوة، ابتدأت بتلقى الوحى فى غار حراء، ومضت تشق طريقها فى شباب قريش، وآمن من آمن من الإنس والجن برسالته صلى الله عليه وسلم، وتتجاوب أصداء هذه الدعوة فى قبائل العرب من خلال لقاءات النبى صلى الله عليه وسلم مع وفود العرب فى أسواقهم ومواسمهم، وبين حزن الرسول عليه الصلاة والسلام الشديد لفقد زوجه خديجة وعمه أبو طالب، ومن خلال رحلة الطائف وما عاناه فى أثنائها ... بين هذه العواصف العنيفة، والأخطار المخيفة التى كانت تحيط بمحمد صلى الله عليه وسلم تمتد يد الرحمة والخير، وتحتضن العناية الإلهية محمدا صلى الله عليه وسلم لتسمو به وترتفع إلى أسمى مكان ... ويقع حادث الإسراء والمعراج تكريما من الله لنبيه، ليكون فى ذلك عوض عما لحقه من أذى المشركين وعنتهم، وما أصابه من آلام ومتاعب فى طريقه الشاق إلى غايته الكريمة، فقد آن الأوان لأن يقر الله سبحانه وتعالى عين نبيه، فيعرج به من دون الخلائق جميعا إليه، ويكرمه على صبره وجهاده، ويلتقى به مباشرة دون رسول ولا حجاب، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافة، ويجمعه مع إخوته من الرسل فى صعيد واحد، فيكون الإمام والقدوة لهم وهو خاتمهم وآخرهم، «ذَٰلِكَ فَضْلُ مِنَ ٱللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيمًا».

وكانت رحلة الإسراء والمعراج، بعد رحلته صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وعودته منها ، جائزة على صبره على ما ناله من

الأذى، وإذا قارنا بين الرحلتين نجد الإسراء والمعراج تسرية عن رسوله الكريم وعزاء له عما نزل به.

ففى الطائف ذهب ماشيا، ولكنه فى الإسراء ذهب إلى بيت المقدس راكبا البراق، وكان بصحبته إلى الطائف مولاه زيد ابن حارثه ولكن فى الإسراء كان فى معيته جبريل عليه السلام.

وفى الطائف لم يجد من يؤمن به ليبلغ رسالة ربه بل تجهم له بنو عبد ياليل، بل أغروا به العبيد والسفهاء، أما فى الإسراء فى القدس استقبله الأنبياء والمرسلون وحيوه أعظم تحية، بل قدمه جبريل ليكون للأنبياء إماما.

فى الطائف ضاقت به الأرض فلم يجد مكاناً يأوى إليه، ولم يقر بنبوته صلى الله عليه وسلم أحد وعاد منها كما دخلها، وفى بيت المقدس فى رحلة الإسراء والمعراج استضافته السماء ليكون مقدما بين أهلها، وليقف سكانها على علو شأنه عند ربه عز وجل، وليأمن به الأنبياءن ويصدق رسالته أهل السماء.

وقد وقع الإسراء والمعراج، فى الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب فى السنة الثانية عشرة من البعثة، وقبل الهجرة بثمانية أشهر على أشهر الروايات.

ولقد ثبت الإسراء بصريح القرآن الكريم، قال تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»(١).

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١.

«وفى هذه الآية الكريمة أشار النص القرآنى المجيد إلى رحلة الإسراء، مفتتحا الحديث عنها بتسبيحه جل شأنه مبتدئا بكمال تنزيه الذات العليا عن كل نقص، وموضحا الحجة الدامغة الصريحة على أنها معجزة فوق مستوى العقل البشرى، وذلك بإسناد الفعل إلى الله العلى القدير، ولما كان فى الإسراء ما فيه من سمو مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم، وزيادة تشريفه، فقد وصفه الله تعالى بأسمى الأوصاف، وأكرم المقامات، وهى قوله تعالى: «بعبده» فهو الذى خلصت عبوديته، وكمله ربه وأدبه فأحسن تأديبه، وتوجه بمكارم الأخلاق، قال تعالى: «وأنك لعلى خلق عظيم» وقال صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

لقد أسرى به صلى الله عليه وسلم ليلا، أتى وقت السكون وفى هداة الحياة وطمأنينة الأفق الكونى فى جزء محصور من الليل، فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله بكثير من النعم السابغة الظاهرة والباطنة، المادية منها والروحية، فحول هذا المسجد العظيم، أخرج الله تعالى كثير من خيرات الأرض ونباتاتها الطيبة الكثيرة التى تنفع الناس، كما أن حوله من البركات الروحية والمعنوية ما يروى ظمأ النفوس المؤمنة، فهو مهبط الأنبياء والملائكة. وقد كشفت الآية الكريمة عن آلاء الله تعالى التى توافدت على حبيبه صلوات الله وسلامه عليه، وذلك فى قوله تعالى: «لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، وفى تلك الآيات التى أراها الله لحبيبه ومصطفاه صلوات الله وسلامه عليه ما يدل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى مما لا يسوغ لمنكر جاحد أن يتصدى لهذه المعجزة الخارقة بالإنكار، لا سيما وقد أمد الله تعالى الفكر البشرى اليوم بفيض غامر من العلوم والمعارف التى جعلته

يرسل الطائرات فى الأجواء، ويبعث بسفن الفضاء ترسو على القمر، فكيف ينكر الإنسان على خالق القوى والقدر، مدبر السموات والأرض اسراءه برسوله صلى الله عليه وسلم؟»

كما ثبت الإسراء والمعراج معا بالأحاديث النبوية الصحيحة التى لا يتطرق أليه الضعف ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتيت بالبراق وهو دابة فوق الحمار ودون النعل حافره عن منتهى طرفه، قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فأخترت اللبن. فقال جبريل: إخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بآدم، فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل : ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا يا بنى الخالة: يحيى وعيسى بن مريم فرحبا بى ودعوا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فذكر مثله. فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرد بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله. فإذا أنا بهارون، فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة،

فذكر مثله فإذا أنا بإبراهيم ... ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، فأوحى الله إلى ما أوحى، ففرض على وعلى أمتى خمسين صلاة فى كل يوم وليلة...

فنزلت إلى موسى. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: أرجع إلى ربك فسله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم.

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: فما زلت أراجع ربى حتى جعلها خمس صلوات فى اليوم والليلة، وقال: يا محمد، هن خمس فى العدد ولكنهم خمسون فى الأجر والثواب.

وللمؤرخين أقوال مختلفة فى طريقة الإسراء من مكة إلى القدس..وفى كيفية المعراج من القدس إلى السماء ... فإلى سدرة المنتهى.... قال بعض العلماء إن الإسراء كان رؤيا منامية، مستدلين بقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِيَ أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ»(١). ومن هؤلاء عائشة ومعاوية - رضى الله عنهما والحسن وبن إسحاق(٢).

وفصل بعضهم فقال: كان الإسراء إلى بيت المقدس بالروح والجسد يقظة، وأما المعراج بالروح فقط.

والذى عليه معظم السلف والخلف من ائمة المسلمين وعلمائها، أن الإسراء والمعراج بكل من الروح والجسد معا ، قال الإمام النووى ما نصه : «والحق الذى عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٦٠.

(٢) فتح القدير ٢٠٧/٣.

المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة فى حملها عليه فيحتاج إلى تأويل(١)».

ويقول ابن حجر: «إن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغى العدول عن ذلك إذ ليس فى العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل(٢)».

ويقول ابن القيم: ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم بجسده على الصحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى(٣).

كما يقول الشوكانى: وقد اختلف أهل العلم، هل كان الإسراء بجسده صلى الله عليه وسلم مع روحه أو بروحه فقط؟ فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول(٤).

ومن الأدلة التى لا تقبل التأويل أو الاحتمال، على أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح، ما ذكر من استعظام مشركى قريش لذلك، إذ لو كان المقصود الرؤيا المنامية لم يستبعد ذلك المشركون، ولم ينكروه على الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الإنسان تسبح

(١) النووى على صحيح مسلم ٢/٢٩٠.
(٢) فتح البارى على صحيح البخارى ٧/١٣٦ ، ١٣٧.
(٣) زاد المعاد ٢/١٢٥ .
(٤) فتح القدير ٣/٢٠٧ .

روحه وهو نائم، وحيث إن المشركين قد استبعدوا ذلك وأنكروه، وكذبوا الرسول عليه السلام لما حدثهم به دل ذلك على أن الإسراء كان بالروح والجسد معا فى اليقظة لا المنام.

نعم، لقد كان الإسراء والمعراج رحلة حقيقية بالروح والجسد، ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى من الآيات الكبرى، ثم رجع بعد هذه الرحلة المباركة إلى مكة تحف به السكينة، ويغمره الرضا والطمأنينة، فلما أصبح وأخبر الناس بحادث الإسراء، أيقن الكثير منهم أن هذا كذب وافتراء، أو جنون وهذيان، بل لقد ارتد عن الإسلام قوم لما يدخل الإيمان فى قلوبهم وقالوا: هذا والله الأمر البين! والله إن العين لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة، وشهرا مقبلة، فكيف يذهب محمد إلى بيت المقدس ويرجع إلى مكة فى ليلة واحدة ...؟

ولقد طلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس، ولم يكن رآه قبل هذه الليلة، فأخذته الحيرة والألم، فجلاه الله، فصار يصفة وصفا شاملا لا شك فيه... وسألوه عن آية أخرى على صدق كلامه: فقال: مررت بعير بنى فلان بوادى كذا، فأنفرهم حس الدابة، فَنَدَّ لهم بعير، فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى بعير بنى فلان، فوجد القوم نياما، ولهم إناء فيه ماء وقد غطوا عليه بشئ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان....

وآية ذلك: أن عيرهم الآن عند ثنية التنعيم(١) يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء.

---

(١) التنعيم : موضع، على ثلاثة أميال من مكة. راجع مختصر معجم البلدان ١/٢٧٧.

فأسرع القوم إلى الثنية، فوجدوا الجمل كما وصفه لهم. وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كا غطوه ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الآخرين بعد ذلك فقالوا : صدق والله، لقد ند لنا بعير بالمكان الذى أخبركم عنه، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه(١) .

وهكذا ذكر لهم صلوات الله وسلامه عليه من الأمارات والعلامات مالا سبيل إلى الطعن فيه ولكنهم على الرغم من ذلك كله لم يزاد إلا كفرا وعنادا، ولم يزداد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلا صبرا وجهادا...

وأما المؤمنين الصادقين المخلصين، فقد زادهم هذا الحادث - الإسراء والمعراج - إيمانا على إيمانهم، ونذكر فى هذا موقف الصديق أبى بكر رضى الله عنه، عندما ذهب إليه أناس وقالوا له: ما تقول يا أبا بكر فى صاحبك؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه ورجع إلى مكة..!

فقال لهم أبو بكر الصديق: والله لئن كان قال لكم ذلك، لقد صدق... ووالله إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه !

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره الرسول بما وقع له من ذلك الحادث، فلم يزدد الصديق إيمانا بالرسول الكريم وتصديقا له، حتى لقد سمى منذ ذلك اليوم: «صديقا».

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٨/١.

أجل، لقد عانى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسراء والمعرج، الوانا كثيرة من المحن لاقاها من قومه وكان آخر هذه المحن عند ذهابه إلى الطائف وما تعرض له من صبيانهم وغلمانهم من أيذاء، ولقد ظهر فى دعائه صلى الله عليه وسلم الذى ناجى فيه ربه بعد أن جلس يستريح فى بستان ابنى ربيعة، والتجأ إلى ربه تعالى يشكو له، وخشى أن يكون الذى يلاقيه إنما هو بسبب غضب من الله عليه لأمر ما... ولذلك كان من جملة دعائه قوله: إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى.

فجاءت رحلة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريما من الله تعالى لرسوله الكريم، وتجديدا لعزيمته وثباته، ثم جاءت دليلا على أن هذا الذى يلاقيه من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه، أو أنه قد غضب منه، وإنما هى سنة من الله مع من يحب.

أما كون الرحلة إلى بيت المقدس خاصة دون غيره، فى هذا دلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عن الله تعالى، وفيه دلالة واضحة أيضا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذى ابتعثهم الله عز وجل به.

كما أن هذه الرحلة -- الإسراء والمعراج -- إلى بيت المقدس، ليصل الله سبحانه وتعالى الحاضر بالماضى ويربط بين الإسلام والرسالات السابقة التى عطرت أرضه وباركت حوله وقد كرمه الله تعالى فى هذ الموطن حيث التقى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنبياء والمرسلين من قبله فصلى بهم ركعتين، أشارة إلى ان الإسلام هو خاتم الأديان: «إن الدين عند الله الإسلام»، «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه»

لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبائل

منذ أوائل البعثة وعلى وجه التحديد منذ السنة الرابعة لمبعث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ومنذ بدأ الدعوة الجهرية للإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقى بالناس فى المواسم والأسواق ويدعوهم إلى الإسلام.

يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة، وكان يلتقى بالقبائل، ويأتى إليهم داعيا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم قائلا لهم: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة».

فكان منهم من رد بسخرية، ومنهم من رد ردا قبيحا كقبيلة بنى حنيفة أهل مسيلمة الكذاب، ومنهم من طلب أن تكون لهم الرياسة من بعده كقبيلة بنى عامر، فلما قال لهم: «أن الأمر لله يضعه حيث يشاء» اعرضوا عن دعوته وانصرفوا.

كل هذا وأبو لهب وراءه يقول: «لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب» فيردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ويؤذونه قائلين: «أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك»(١)

وفى السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه صلى الله عليه وسلم على القبائل شأنه فى كل عام، فبينما هو عند العقبة(٢) لقى

(١) طبقات ابن سعد ١/٢٠٠ ، ٢٠١، سيرة ابن هشام ١/٤٢٣.
(٢) العقبة: موضع بين منى ومكة منها ترمى جمرة العقبة.

رهطا كانوا ستة هم : أسعد بن زرارة، وعامر وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر من بنى حرام، وجابر بن عبد الله من بنى عبيد بن عدى بن سلمة، وهم من الخزرج، أراد الله بهم خيرا، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالى يهود؟ قالوا: نعم، قال: فلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

وكان مما مهد قلوبهم لقبول الإسلام، أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال، قال لهم اليهود: ان نبياً مبعوث الآن قد أطل زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم!.

فلما تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء النفر، ودعاهم إلى الإسلام فنظر كل منهم إلى صاحبة قائلا : «والله أنه للنبى الذى تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه».

فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا ووعدوه أن يقابلوه فى الموسم المقبل(١).

ثم عاد هؤلاء الستة إلى المدينة، وذكروا لقومهم امر ملاقاتهم لمحمد، وعرضه عليهم الإسلام، فصدقوا به وآمنوا برسالته ، فسارع

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٢٨.

بعضهم إلى الدخول فى هذا الدين قبل اليهود، ولم يتبق دار من دورهم إلا وفيها ذكر محمد عليه الصلاة والسلام.

وفى تلك الأثناء كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة ينتظر أخبار هؤلاء الستة الذين وعدوه المجئ فى الموسم القادم، ليرى أثر دعوتهم فى المدينة.

بيعة العقبة الأولى

تمت بيعة العقبة الأولى فى السنة الثانية عشرة للبعثة، فقد مضت الأيام وأقبل موسم الحج عام ٦٢١هـ، وعند العقبة، التقى النبى صلى الله عليه وسلم بأثنى عسر رجلا من أهل يثرب، أثنان من الأوس هما: ابو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة من بنى عوف، وعشرة من الخزرج وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث من بنى النجار، وذكوان بن عبد قيس، ورافع بن مالك من بنى زريق، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبه أبو عبد الرحمن من بنى عوف بن الخزرج، وعباس بن عبادة بن نضلة من بنى عامر بن عوف، وعقبة بن عامر بن نابئ من بنى سلمة، وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سواد، وقد أسلم هؤلاء جميعا.

عندما التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوفد المدينة، حدثوه بأن أهل بلدهم ينتظرونه ليلتفوا حوله ويعتنقوا رسالته .

وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء (أى على غرار ما بايع عليه رسول الله النساء، وكانت بيعة النساء ثانى يوم الفتح على جبل الصفا بعد ما فرغ من بيعة الرجال) فإن مبادئ هذه البيعة تتفق مع مبادئ بيعة النساء التى ورد ذكرها فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ، فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»(١) .

---

(١) سورة الممتحن الآية : ١٢.

وقد روى عبادة بن الصامت خبر هذه المبايعة - بيعة العقبة الأولى فقال: كنا اثنى عشر رجلا، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعالوا بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه» قال عبادة بن الصامت: فبايعناه على ذلك(١).

هذه هى مبادئ بيعة العقبة الأولى، تلك المبادئ التى تدعو إلى التمسك بالآداب التى دعا إليها القرآن، وجاء بها الإسلام، تلك المبادئ الأخلاقية التى أراد الإسلام أن ينشئ عليها المجتمع الإسلامى، ليكون هذا المجتمع الذى ستقوم على عاتقة دولة الإسلام مجتمعا نموذجيا مثاليا، مبتعدا عن أرجاس الجاهلية، مترفعا بأهله.

وبعد أن تمت البيعة واستعد القوم للرحيل والعودة إلى بلادهم (يثرب) بعث النبى صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير رضى الله عنه، يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويصلى بالمسلمين، ولقد كان للتعاليم الإسلامية التى قام بشرحها مصعب لأهل يثرب أبلغ الأثر فى إقبال الناس على الدخول فى الإسلام، لذلك زاد عدد الداخلين فى الإسلام بيثرب زيادة واضحة، وأسلم على يد مصعب عدد كبير حتى لم تبق دار إلا وفيها مسلمون.

---

(١) متفق عليه، رواه البخارى فى صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء: باب وفود الأنصار وبيعة العقبة، ومسلم فى صحيحه، كتاب الحدود.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفكر فى مصعب أثناء غيبته ويفكر فى أهل المدينة، ويدعو بالتوفيق لمصعب، وبالخير والهداية لأهل المدينة.

وظل على هذ الحال، حتى عاد مصعب إلى مكة فى موسم الحج بعد أن دامت إقامته بالمدينة حوالى عام تقريبا، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر المسلمين هناك واقبال الناس على الدين، وأنهم سيأتون فى موم الحج إن شاء الله...

بيعـــة العقبـــة الثانيـــة

تمت البيعة الثانية للعقبة فى السنة الثالثة عشرة للبعثة، وجاء حجاج المدينة إلى مكة فى موسم الحج: مؤمنهم وكافرهم، وكان فيهم خمسة وسبعون مسلما، ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بمجيئهم ورغبتهم فى لقائه، جاءوا ليدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم للهجرة إليهم، ووعدهم الرسول عليه الصلاة والسلام منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة حيث المسجد اليوم.

وانتظر مسلمو يثرب حتى انتهى أمر الحج وحان الموعد، فخرجوا من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل مستخفين حتى لا ينكشف امرهم، ووصلوا العقبة، وعلى رأسهم الأثنا عشر رجلا الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم البيعة الأولى.

وأقبل رسول الله صلى الله علليه وسلم العقبة ومعه عمه آلعباس، ولم يكن على دين الإسلام، ولكن حضر ليستوثق لابن أخيه،

وكان العباس أول المتكلمين فقال: «يا معشر الخزرج، إن محمدا منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون إنكم خاذلوه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعه من قومه وبلده» .

فبايعم رسول الله صلى الله عليه وسلم على حرب الأسود والأحمر بعد أن استوثق له عمه العباس منهم، فقال كبيرهم والمتكلم عنهم البراء بن معرور: لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكن نريد الوفاء والصدق وبذل المهج دون رسول الله.

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن الكريم ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام، وذكر الذى اجتمعوا له، فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال: يا رسول الله بايعنا فنحن أهل الحلقة - أي السلاح - ورثناها كابرا عن كابر، ويقال: أن أبا الهيثم بن التيهان كان أول من تكلم فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقه.

ثم تخير منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم: أبو الهيثم بن التيهان وأسعد بن زرارة وأسيد بن حضير، والبراء بن معرور، ورافع بن مالك، وسعد بن أبى خيثمة، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عمر، وعبادة بن الصامت، والمنذر ابن عمرو.

فلما تخيرهم قال للنقباء : «أنتم كفلاء عل قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى».

وكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك.

ظن المسلمون أن أمرهم لايزال فى الخفاء، ولم يطلع عليه أحد، وبخاصة وقد أخذوا حذرهم، ودبروا أمرهم، فقد تواعدوا عند العقبة فى مكان بعيد عن الناس، وكان ذلك فى جوف الليل بعد أن نام أهل الموسم ، كما كان فى اضيق فرصة من أيام الحج، حتى إذا علمت قريش لم يكن لديها الفرصة لتعوق القوم وتعترض طريقهم.

ورغم كل هذا الحذر فقد علمت قريش بذلك فبدأت نفوسهم تضطرب لما سمعت، وقلوبهم تمتلئ فزعا لهذا الحادث، وعزموا على أن يحولوا بين محمد وبين الوصول إلى يثرب، حتى لا يعظم امره فيها ويصبح خطرا عليهم، فخرجت قريش تقتفى أثر مسلمى يثرب، فلم يدركوا إلا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، أما المنذر فأفلت، وأما سعد بن عبادة فعذب حتى انجاه الله منهم.

قال ابن هشام: وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله فى القتال شروطا سوى شرطة عليهم فى بيعة العقبة الأولى: كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله لم يكن أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحرب، فلما أذن الله له فيها وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا

ومكرهنا وأثره علينا، وإن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم.

وكانت أول آية نزلت في الإذن بالحرب للرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تبارك وتعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور»(١) .

ولأمر ما أراده الله عز وجل انتهى إلى سمع المشركين من أهل مكة خبر هذه البيعة وما تم فيها بين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من أهل المدينة.

ولعل من حكمة ذلك تهيئ أسباب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فسنجد أن لهذ الخبر الذى انتهى إلى سمع المشركين أثرا كبيرا في تضييقهم الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماعهم الرأي على قتله والتخلص منه.

ومهما يكن، فإن بيعة العقبة الثانية، كانت المقدمة الأولى لهجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة .

---

(١) سورة الحج الآيات : ٣٩ ، ٤١ .